عَلَى أَعتَاب
بَيتِ الحِكمَة

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: عَلَى أَعتَاب بَيتِ الحِكمَة
المـــؤلـــف: أحمد حامد قشطة
موضوع الكتاب:
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد المـــلازم: 14 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 0000 / 2024
الترقيم الدولي: 0 - 00 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

عَلَى أَعتَاب بَيتِ الحِكمَة

- جولةٌ عبرَ الزَّمن إلى بَيتِ الحِكمَةِ في بَغداد -

تأليف

أحمد حامد قشطة

دار البشير للثقافة والعلوم

الإهداء

أُهدِي هذا الكتاب إلى.. الغاليةِ أُمِّي.. المعلِّمة الفاضلة.. أ. بَدر حَسَن النجَّار.. فهي التي درَّست مادة «الدِّراسات الاجتماعية».. لأجيالٍ مِنَ الطَّلبة والطَّالبات.. كنتُ أنا واحداً منهم..

كما أُهدِيه إلى.. الغالي أَبي.. المعلِّم الفاضل.. أ. حَامِد حَامِد قشطة.. فهو الذي درَّس مادة «الرياضيَّات» لأجيالٍ مِنَ الطَّلبة والطَّالبات.. كنتُ أنا – أيضاً – واحداً منهم..

ومِن بَعدِهِما.. أُهدِيه إلى زوجتِي.. د. أسْماء حُسنِي.. صاحبة الأيادي البيضاء في تحفيزي لكتابة هذا العمل الذي بين أيديكم.. وما سَبَقَهُ مِن أعمال..

فلهُم جميعاً الفضل بعد الله في إنجازِ هذا العملَ البسيط

سائلاً الله تعالى أنْ ينفعَ به قارئه

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

فقد اختزنت الذاكرةُ الحضارية للأمَّة الإسلامية الكثيرَ من مقوِّمات النهوض التي اكتسبتها بفضل قيامها على تعاليم المنهج الرباني الأقوم، ولَمَّا لم يُحرِّم الإسلامُ الانتفاعَ بكلِّ ما وصلتْ إليه سائر الأُمَم من العلوم - ما لم تتناقض مع أصولِ شريعته - فقد نَشِطَت حركة الترجمة منذ أواخر القرن الهجري الأول إلى أنْ بلغتْ ذروتها في القرن الثالث، وذلك بالتوازي مع اكتمال إنشاء **بيت الحِكمَة** في بغداد زمن الخليفة العبَّاسي عبدالله المأمون (ت: ٢١٨هـ).

أثمرتْ هذه الحركة العلمية التي تبنَّاها العربُ في جعلِهم دوائرَ معارف موسوعية في كلِّ علمٍ وفن؛ فلم يكتفوا بنقل الكتب الأجنبية إلى لغتهم العربية، وإنما فسَّروا وأصلحوا بعض تلك الترجمات التي لم تبقَ على حالَتِها بل توسَّعت بشكلٍ ملحوظ، فتمَّتْ لهم بذلك عمليةُ تأليفٍ نَشِطَة أُضِيفَت بدورِها إلى عملية الترجمة، فكان زمن المأمون هو أخصَب تلك الأزمنة في مجال العلوم.

وقد صارَ بيتُ الحِكمَة، بعد أنْ توسَّعت مهامُّه، وكَثُرَ روَّادُه، ونَشِطَت أعماله، مَجمَعاً علميًّا، وخِزانَةَ كتب، ومَرصَداً فلكيًّا، ومَوئِلاً للمناظرات والمجادلات، ليتَّضِحَ أنَّ مهمَّة هذا البيت لا تقتصرُ على شأنٍ واحد، وإنَّما تتكفَّل بمهام كثيرة، منها: جمع الكتب وترجمتها وشرحها والتأليف في موضوعها، بالإضافة إلى اجتماع العلماء، وعقد المناظرات والمجادلات التي نشأت في ذلك العصر[1].

وانطلاقاً مِن هذه الثورة العلمية التي أحدثَها بيتُ الحِكمَة، جاءت هذه الجولة الافتراضية بين جَنَبَاتِ هذا البيتِ وأركانِه؛ لتلقيَ ضَوءاً على فترةٍ من أكثر فترات الحضارة الإسلامية إشراقاً ومَهَابة، وقد شَهِدَ كثيرٌ من المستشرقين بذلك الأثر الكبير الذي خلَّفته هذه المؤسَّسة في إثراء المعرفة الإنسانية.

كما قام بيتُ الحِكمَة الذي شيَّده العباسيون في عاصمةِ خلافتهم بلعبِ دورٍ فعَّال في مزجِ الثقافات والمعارف المختلفة؛ حيث اجتمعَ فيه جماعاتٌ مِن النَّقَلَة والمترجمين من أصولٍ مختلفة، فكان بينهم مَن ينتمونَ إلى جنسياتٍ وأديان متعددة؛ فهناك الفارسي والهندي، والمسلم والمسيحي واليهودي والصَّابئ، حيث كانت الحرية التامَّة تسودُ البيت، فلا أثر للتعصُّب الديني والعِرقي. وقد وُصِفَ

(1) بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية، د. يحيى وَهيب الجُبُوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. ص ٤٨.

المشرفونَ على التأليف والترجمة في هذا البيت بأنَّهم **أساطين العِلم والمعرفة**، فضلاً عن أنَّ الخلافةَ كانت تمدُّهُم بأنفَسِ الكتب من خلال المبعوثين إلى مكتبات العالَم»[1].

وبالجملة، فقد أدَّى العلماءُ في بيتِ الحِكمَة واجبهم العلمي في جوٍّ تسوده أخلاقيات العِلْم؛ من حبٍّ وتقديرٍ وتسامح، كما كان أكثر العلماء في هذا البيت من النَّصارَى والسُّريان والفُرس وغيرهم، ولم تعرف هذه المؤسَّسة صُوَرَ التعصُّب لجنسٍ معيَّن أو دينٍ معين، وإنَّما كان شِعَار كل هؤلاء: **الحرية الفكرية التامة**، والسبب في هذا هو الجو العقلي الذي وفَّره المأمون لعلمائِه، فانقطعَ كلُّ هؤلاء الرَّهط من العلماء إلى الدَّرس والنقل والنَّسخ ومطالعة كتب الحضارات الأخرى، واختيار ما يصلُح للعصر ليُنقل للأجيال في صورةٍ علميةٍ لائقة[2].

على سبيلِ الاستعداد

عَزَمتُ أنا وصديقٍ لي على المُضِيِّ قُدُماً في خَوضِ غِمارِ جولةٍ افتراضيَّة بعد نصيحة بعض الأصدقاء المقرَّبين، وخصوصاً عندما

---

(1) بيت الحكمة البغدادي وأثره العلمي، بهجه علي محمد البياتي، رسالة ماجستير مقدَّمة إلى كلية التربية بجامعة بغداد، إشراف: د. هادي حسين حمود، محرم ١٤٢٤هـ/ آذار ٢٠٠٣م، ص ٣٩.

(2) حُنين بن إسحاق: العصر الذهبي للترجمة، د. ماهر عبدالقادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٧ – ٤٨.

عَلِموا باهتمامِنا البالغ بإسهامات علماء العرب والمسلمين في العلوم العقلية، وبذلك لاقتْ تلك الفكرة موقعاً عندنا.

وعلى الرغم من أنَّ مكتبتي الشخصية كانت مليئةً بالعناوينِ المتعلِّقة بالتراث العلمي للحضارة الإسلامية، إلا أنَّ مكتبةَ صديقي كانت أوفر منها حظًّا؛ إذ كان له مِنَ الأقرباء المعنيِّين بهذا الموضوع، مَن يمدُّونه بالكثيرِ مِن الإصدارات الجديدة في قضايا التراث العربي والإسلامي، ولذا كان عليَّ دَوماً أنْ أستعينَ بمكتبته في بعض ما يقفُ أمامي من قضايا وأسئلةٍ محورية في موضوع وجهتنا الافتراضية نحوَ بيتِ الحِكمَة.

إلى جلسة العَصْف الذِّهنِي

في البداية، رأينا أنْ نقومَ بعملِ جلسةٍ للعَصْف الذِّهنِي[1] حول موضوع وجهتنا الافتراضية صوبَ هذا البيت؛ وذلك من أجل أن تكون استفادتنا كاملة من هذه الوجهة التي نقصدها.

والعصفُ الذهنيُّ قديمٌ في مضمونه، حديثٌ في أساليبه وأدبياته؛ فالناسُ منذ قديم الزمان يجتمعونَ لحلِّ ما يعترضهم من مشاكل، وهو نوعٌ مِن تحريضِ الدِّماغ على العمل من أجل توليد فكرةٍ أو تطويرها، ولذلك لجأنا إلى هذه الطريقة المبتكرة التي تعمل على إطلاق حرية التفكير وتحفيز الحاضرين[2].

كما تُعتبر هذه الطريقة من الاستراتيجيات الحديثة التي حظيت

---

(1) **العَصْف الذِّهنِي**: أسلوبٌ يعتمدُ على نوعٍ من التفكير الجماعي والمناقشة بين مجموعاتٍ صغيرة؛ بهدف إثارة الأفكار وتنوعها، وبالتالي توليد قائمة من الأفكار التي يمكن أنْ تؤدِّي إلى حلٍّ للمشكلة مدار البحث. انظر: القاموس العربي الأول لمصطلحات علوم التفكير، عيسى سعد العوفي، عبدالرحمن علوي الجميدي، ديبونو للطباعة والنشر والتوزيع، عمَّان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ١٧٣.

(2) تكوين المفكر: طرح عملي، أ.د. عبدالكريم بكار، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص ٢٩٨.

باهتمام الباحثين؛ حيث أنَّها تعدُّ أحد الأنشطة الجماعية التي تؤدي إلى إطلاق المزيد من الأفكار للوصول إلى فيضٍ حقيقيٍّ من الأفكار المتنوعة، وقد تمثَّلت هذه الجلسة في محورينِ أساسيين:

المحور الأول: المُراد بالحِكمَة

أخرجَ صديقي من جُعبَتِه ورقةً بيضاءَ ناصعة وأخذَ يكتبُ عليها بخطِّه الرائق، قوله تعالى في مُحكَمِ التنزيل: ﴿**يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أوتِيَ خَيرًا كَثيرًا**﴾[1]، ومِن ثَمَّ فقد حاولنا الحَومَ حول حِمَى الحِكمَة، وحول بعض تجلِّياتها وتجسيداتها.

ثمَّ استهلَّ الحديثَ بأنَّ تاريخ الإنسان هو مكافحة العَماء والغموض في داخل نفسه وفي خارجها؛ فهو يحاول أبداً صياغة المفاهيم والرؤى التي تمكِّنه من فهم مركزه في هذا الكون، ومعرفة المحيط الذي يعيش فيه؛ بغيةَ فهم الموقف الصحيح والخطوة المناسبة.

ومهما بَذَلَ الإنسان مِن جهودٍ في سبيل الوصول إلى ذلك، فإنَّ

(1) سورة البقرة: ٢٦٩.

نجاحه يظلُّ نسبياً، كما أنَّ تقدير الناس لذلك النجاح سوف يظلُّ متفاوتاً؛ حيث إنَّ مبادئ الإنسان ومعارفه تتحكَّم دائماً في بلورة رؤيته للأشياء؛ ومن ثَمَّ فإنَّ موقفاً ما قد يكون في نظرِ واحدٍ مِنَّا حَكِيماً، على حين ينظر إليه الآخرونَ على أنَّه طائشٌ وخائب؛ إلا أنَّ الأيام بما تجلِّيه من عواقب ونتائج، وبما تركُمُهُ من نماذج، تساعدنا على نوعٍ من توحيدِ الرؤية والفهم.

أثنيتُ على مداخلة صديقي التي دارتْ حول حقيقة بحث الإنسان الدائم عن إيجاد تفسيراتٍ صحيحة مِن شأنِها أن تُعينه على فهمٍ أفضل للمحيط الذي يعيشُ فيه، وما يترتب على ذلك من اتِّخاذ مواقف تتباين فيها الرؤى ما بين حكيمةٍ وطائشة. وعلى ذلك، فقد يكون التعريف الأقرب للحِكمَة هو «**العلم بحقائق الأشياء**»[1].

اعترضَ صديقي على هذا التعريف الأخير للحِكمَة، والذي رآه لا يفي بالمعنى المُراد إطلاقه على هذا اللفظ التي تكرَّر ذكره في القرآن الكريم عشرات المرات؛ فقد وردَ لفظ «**حَكِيم**»: ٨١ مرة، ولفظ «**حَكِيماً**»: ١٦ مرة.

والحقيقة أنَّ صديقي كان مُحِقًّا في كلامه، فبعدَ تفكيرٍ في ذلك

(1) معجم لغة الفقهاء (عربي - إنكليزي - إفرنسي)، أ.د. محمد رواس قلعه جي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ١٦٣.

التعريف محل الخلاف، توصَّلتُ إلى ذات النتيجة التي أرادَها، إلا أنَّه على الرغم من الاختلاف في تعريف الحِكمَة، فإنَّه سيظلُّ بالإمكان تحليلها إلى العناصر المكوِّنة لها، وهي على ما يبدو لي ثلاثة:

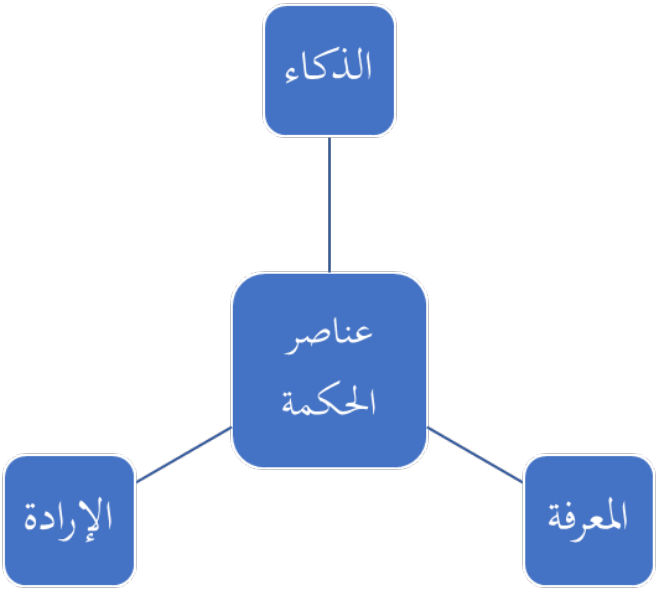

فالذكاء اللمَّاح، والمعرفة الواسعة، والإرادة الصلبة تُكوِّن معاً: **الحِكمَة**، وعلى مقدارِ كمال هذه العناصر يكونُ كمالها..

عند ذلك وافقني صديقي على هذا التحليل، واستطردَ بأنَّ الذكاء بمفردِه لا يجعل الإنسان حَكِيماً؛ إذ مِن الملموس أنَّ الذكاء دون قاعدةٍ جيِّدة من العِلْم والخبرة يُنتج فروضاً ومعرفة شكلية، كما أنَّ المعرفة دون ذكاء تجعلُ استفادة صاحبها منها محدودة، وتجعل وظيفته مجرَّد

الحفظ والنقل، دون التمكُّن من غربلة المعرفة أو الإضافة إليها.

والأهم من هذا وذاك أنَّ المعرفة دون ذكاء تؤخِّر ولادة الموقف الحكيم، وتجعل الواحد منا يأتي بعد الحدث بسبب ضعف البداهَة، ولا يكفي الذكاء اللمَّاح، ولا الخبرة الواسعة في جعل الإنسان حكيماً ما لم يمتلك قوة الإرادة؛ لأنَّ الإرادة القوية وحدها هي التي تجعلنا ننصاع لأمر الخبرة، وهي التي تُنتج سلوكاً يختفي فيه الفارق بين النظرية والتطبيق.

بين العَالِم والحَكيم

بعد هذا الطرح المميز من قِبَلِ صديقي في بيان تكامل هذه العناصر الثلاثة، سألني عن الفارق بين العالِم والحكيم..

فذكرتُ له بأنَّ المعرفةَ مهما كانت واسعة، لا تعدو أن تكون إحدى مكوِّنات الحِكمَة، ومِن ثَمَّ فإن هناك فارقاً بين العالِم والحكيم؛ فقد يكون المرءُ في قمَّة تخصصٍ من التخصُّصات، لكنه لا يُعدُّ حَكِيماً، كما أنَّ الحَكِيم قد لا يكون عالِماً مُتبحِّراً في أي علمٍ من العلوم!..

العَالِم يفكِّك المعرفة من أجل استيعابها؛ فيقوم بتنظيمها وتوزيعها على مساقاتٍ كثيرة، أمَّا الحكيم فإنَّه يقومُ بتركيب المعرفة النظرية مع الخبرة العملية من أجل بناء وتشكيل المفاهيم العامة في سبيل الوصول إلى رؤية شاملة تتناغم فيها معطيات الماضي والحاضر

من أجل المستقبل.

العِلْم يمكِّننا من صُنع الدواء، وصُنع السِّلاح، لكنَّ الحِكمَة تجعلنا نعرف متى نُداوي، ومتى نُحارب. العلماء كُثُر، والحكماء نادرون؛ لأنَّ تحليل المعرفة أسهل من تركيبها.

إنَّ الحكمة أُمُّ الوسائل والأساليب، لكنها أكبر من أن تُحصَر في أيِّ منهجٍ من المناهج، إنَّها معرفة تتأبَى على التنظيم، فهي دائماً مرفرفة، على حين أنَّ العِلْم معرفةٌ منظَّمة، وكل العلوم يبدأ تفتُّحها على أنَّها حِكمَة، وتنتهي إلى أن تكون فنًّا، أي إنَّها تفقدُ طاقتها على التجدُّد بعد أن يتم سجنها في قوالب جاهزة، وتصبح بحاجة ماسَّة إلى أن ترفرف من جديد، وذلك من خلال تطعيمها بالحِكمَة، ومن ثمَّ فإنَّ الحِكمَة تتأبَى على الاستنفاد، ولذا فإنَّها الخير الكثير الفيَّاض المتجدِّد الذي يُهيئه الله تعالى لِمَن شاءَ مِن عبادِه[1].

الحِكمَة والإرادَة

تُعتبر الإرادة الصلبة مكوِّن أساسي من مكوِّنات الحِكمَة كما ذكرنا، وهي الإكسير الذي يُحيل المعرفةَ النظريَّة إلى نماذج متحقَّقة في الواقع المحسوس، إنَّ الحكمةَ نورٌ داخليٌّ يشكِّل مفهوماتٍ كثيرةٍ

(1) في إشراقة آية، أ.د. عبدالكريم بكار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص ٣٨ - ٣٩.

متباينة، ويدمجها في نَظْمٍ أشمل، فتبدو منسجمةً متناسقة، لكنَّ الحكيم لا يبدو كذلك، فهو طرازٌ فريد، ونموذج خاص، يصعُب تقنين عطاءاته وتوجُّهاته ومواقفه؛ لأنَّ طبيعة الحكمة تتأبَّى على التحقِّق الكامل، ومَن ثَمَّ فإنَّها تلوحُ في بعض المواقف والسلوكيات لتدل على فضل الله تعالى على أصحابها وتوفيقه لهم.[1]

أنواع الحِكمَة

والآن بعد معرفة العناصر المكوِّنة للحِكمَة؛ نأتي إلى التعرُّف على أنواع الحكمة، وهذا هو السؤال الذي طرحته على صديقي، وقد اعتقدتُ للوهلةِ الأولى أنَّ للحِكمَة أنواعاً كثيرة، فإذا هما نوعين أساسيينِ فقط:

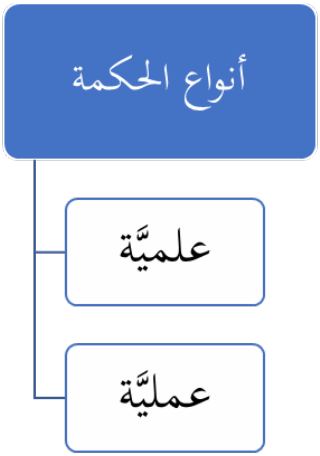

(1) نفس المصدر السابق: ٤٠.

النوع الأول: حكمة علميَّة نظريَّة، وهي الاطلاع على بواطنِ الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمُسبِّباتِها، خَلْقاً وأمراً، قَدَراً وشَرْعاً، ومرجعها إلى العِلْمِ والإدراك.

النوع الثاني: حكمة عمليَّة، وهي وضعُ الشيء في موضعه، ومرجعها فعل العدل والصواب.

ولا يمكن خروج الحكمة عن هذين المعنيين؛ لأنَّ كمال الإنسان في أمرين، أن يعرف الحقَّ لذاته، وأن يعمل به، وهذا هو العلم النافع والعمل الصالح، وقد أعطى الله عزَّ وجلَّ أنبياءه ورسله ومَن شاءَ مِن عباده الصالحين هذين النوعين، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام:

﴿**رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا**﴾: وهي الحكمة النظريَّة.

﴿**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ (الشعراء: ٨٣): وهي الحكمة العمليَّة[1].

الحِكمَة في القُرآن

إنَّ الناظرَ في الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة «**الحِكْمَة**» يجد أنَّها ما اقترنت بذكر «**الكِتَاب**» إلا كانت تاليةً له، وكأنَّ في ذلك إشارة إلى أنَّ الحكمة بما هي مفاهيم ونظر كلي لا يصح أبداً أن تتشكَّل خارج مبادئ الكتاب ومعطياته الكبرى؛ إنَّه القَيِّم والمهيمن عليها،

(1) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، د. سعيد بن علي بن وَهف القحطاني، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ، ص ٣٣ - ٣٤.

وليس في ذلك حدٌّ من عطاء الحكمة وانطلاقها، ولكنه إمساك بها كي لا تفقدَ اتجاهها ومحورها؛ فالعقل البشري على سعة إمكاناته لا يستطيع أن يعملَ بكفاءةٍ إلا داخل إطار توجيهي يمنحه شيئاً من الثوابت وصلابة اليقين[1].

وردَ لفظ الحكمة في القرآن الكريم عشرينَ مرَّة، في تسع عشرة آية، في اثنتي عشرة سورة، وقد وردَ لعدة معان:

* **النبوة والرسالة:**

﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ﴾ (آل عمران: ٤٨).

﴿وَآتَيناهُ الحِكمَةَ وَفَصلَ الخِطابِ﴾ (ص: ٢٠).

﴿وَآتاهُ اللَّهُ المُلكَ وَالحِكمَةَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

* **القرآن والتفسير والتأويل:**

﴿يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أوتِيَ خَيرًا كَثيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

* **الفِقه في الدِّين:**

﴿وَآتَيناهُ الحُكمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٢).

---

(1) في إشراقة آية: ٣٩ - ٤٠.

* **الوعظ والتذكير:**

﴿فَقَد آتَينا آلَ إِبراهيمَ الكِتابَ وَالحِكمَةَ﴾ (النساء: ٥٤).

﴿أُولئِكَ الَّذينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ وَالحُكمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (الأنعام: ٨٩).

* **آيات القرآن وأوامره ونواهيه:**

﴿ادعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥).

* **حُجَّة العقل على وفق أحكام الشريعة:**

﴿وَلَقَد آتَينا لُقمانَ الحِكمَةَ﴾ (لقمان: ١٢)[1].

الحِكمَة في السُّنَّة النبويَّة

وردَ ذكر الحِكمَة في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة، والكثير من الأحاديث الضعيفة، وهنا سأكتفي بذكر بعض تلك الأحاديث الصحيحة:

* عن ابن عباس ﷺ، قال: ضَمَّنِي النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى صَدْرِهِ، وقالَ: **اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ**»[2]، وقد فسرَّ الإمام البخاري الحِكمَةَ بـ «الإصابة في غير النبوة».

(1) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدِّين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٢/ ٤٩٠.

(2) صحيح الإمام البخاري، رقم الحديث: ٣٧٥٦.

* وعن أنسٍ بن مالك ﷺ، قال: كان أبو ذَرٍّ يُحَدِّث أن رسول الله ﷺ قال: «**فُرِجَ سَقْفُ بَيْتي وأَنَا بمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ، مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وإِيمَانًا، فأَفْرَغَهَا في صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ**»[1].

* وعن عبدالله بن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حَسَدَ إِلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا، فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وآخَرُ آتاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها**»[2]، وقد فُسِّرت الحكمة في هذا الحديث بالقرآن.

وكان مِن بين ما أثرناهُ في هذه الجلسة: مسألة وجود بعض الأحاديث المشتهرة على الألسنة في الحِكمَة، عِلماً بأنَّ أسانيدها ضعيفة، مع الإشارة إلى جودة معناها، وأنَّها لا تخرج عن كونها حِكَماً، إذا لم تصح نسبتها إلى رسول الله ﷺ، ومنها:

* «**إذا رأيتم الرجلَ قد أُعطِيَ زهداً في الدنيا وقلة منطق، فاقتربوا منه، فإنَّه يلقَّن الحكمة**»[3].

---

(1) صحيح الإمام البخاري، رقم الحديث: ٣٣٤٢، صحيح الإمام مسلم، رقم الحديث: ١٦٣.

(2) صحيح الإمام البخاري،

(3) رواه أبو هريرة، وروي عن أبي خلاد، وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع الصغير للألباني، حديث: ٥٠٨.

* «الحكمة ضالَّة المؤمن، فحيثُ وجدها فهو أحقُّ بها»[1].

* «ومَن أخلصَ للهِ أربعين يوماً، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه»[2].

* «الطَّمَع يُذهِب الحِكْمَة مِن قُلُوب العُلَمَاء»[3].

* «قلبٌ ليسَ فيهِ حِكْمَة كَبَيْتٍ خَرِب»[4].

* «رأسُ الحِكْمَة مَخَافَةُ الله»[5].

* «الرِّفْق رَأْسُ الحِكْمَة»[6].

* «الحكمة عشرة أجزاء؛ تسعةٌ منها في العُزْلَة، وواحد في الصَّمْت»[7].

---

(1) وهو مرويٌّ عن أبي هريرة وعلي، وهو ضعيفٌ جداً. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٤٣٠٢.

(2) روي عن أبي أيوب، وهو ضعيف. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٥٣٦٩.

(3) روي عن أنس، وهو موضوع. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٣٦٥٩.

(4) روي عن ابن عمر، وهو ضعيف. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٤١٠٧.

(5) روي عن ابن مسعود، وهو ضعيف. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٣٠٦٦.

(6) روي عن جرير، وهو ضعيف. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٣١٥٩.

(7) رواه أبو هريرة، وهو حديثٌ ضعيفٌ جداً. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٢٧٨٧.

* «الحكمة تزيدُ الشريفَ شَرَفاً، وترفعُ العبدَ المملوك حتى تُجْلِسَهُ مَجَالِسَ المُلُوك»[1].

* «أنا دارُ الحكمة، وعَلِيٌّ بَابُهَا»[2].

مَن هو الحكيم مِن البشر؟

طرحتُ هذا السؤال على صديقي الذي بدا له أنَّ الحكيمَ هو رجلٌ يرى ما قبل اللحظة الراهنة، ويستشرفُ ما بعدها، وهو لا يرى نَسَقاً أو نظاماً من التداعيات الترابطيَّة، لكنه يرى أنساقاً ونُظُماً تتوازى، وتتقاطع، وتتصادم، إنَّه يحسّ بالعاصفة قبل هبوبها، فيُحذِّر قومه ويُنذرهم.

كلُّنا نرى القضايا بحجمها الحقيقي، لكن بعد فوات الأوان!، وبعد أن نكتوي بنارها، وتفوتنا الفرصة الذهبية، لكنَّ الحكيم يأتي في الوقت المناسب، كما قال سُفيان الثوري: «**إذا أدبرت الفتنة عرفها كل الناس، وإذا أقبلت لم يعرفها إلا العالِم**»[3].

وحينئذ سألتُه: وماذا إنْ زَلَّ هذا الحكيم أو أخطأ في مسألة؟

فقال: ذكَّرتني بهذه الموعظة البليغة التي قالها معاذٌ رضي الله

---

(1) روي عن أنس، وهو ضعيف. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ٢٧٨٦.

(2) روي عن علي، وهو موضوع. انظر: نفس المصدر السابق، رقم الحديث: ١٣١٣.

(3) في إشراقة آية: ٤٢.

عنه: «**أحذركم زَيْغَةَ الحكيم! فإنَّ الشيطان قد يقول كلمةَ الضَّلالةِ على لِسانِ الحَكِيم، وقد يقولُ المنافقُ كلمةَ الحقِّ**»[1]، فإنَّ زَلَّة العَالِم أو الحكيم مِمَّا يخفى على كثيرٍ من الناس، والواجب هو التحرِّي والتثبُّت.

وفي ختام هذا المحور الأول من جلسة العصف الذهني، نكون قد سعدنا كثيراً بالنتائج التي تحصَّلنا عليها؛ وقد حاولنا في هذه الجلسة الحَوْم حول حِمَى الحِكمَة، وحول بعض تجلِّياتها وتجسيداتها، ليختمَ صديقي هذه الجلسة بسؤالٍ في غاية الأهمية:

أيٌّ من هذه المعاني يرتبطُ بمفهوم الحكمة التي قَصَدَهَا المأمون من إنشائه لهذه المؤسَّسة العملية؟

وعندئذٍ أخبرتُهُ بضرورة الانتظار حتى بداية جولتنا الافتراضيَّة، لعلَّنا نجدُ هناكَ جواباً شافياً عن مثل هذا السؤال وغيرُهُ من الأسئلة التي تَلُوحُ في الأُفُق من حينٍ لآخر.

المحور الثاني: نشأة بيت الحِكمَة

بعد هذه الإطلالَة السَّريعة حول أبرز معاني الحِكمَة وتجلِّياتها، ننطلقُ الآن صوبَ المحور الثاني من جلستنا التي تسبق الجولة الافتراضية، والتي سوف تدورُ حول نشأة بيت الحِكمَة في مدينة بغداد، والظروف التاريخية التي أسهمت في ازدهاره.

---

(1) سنن أبي داود، رقم الحديث: ٤٦١١، وسنده صحيح.

في البداية يجب أن نعلم أنَّ **العصر العبَّاسي الأول**[1] كان مِن أزهَى العصور في الدولة العربية الإسلامية من حيث الاهتمام بالعلم وتشجيع الحركة العلمية، حيث كان لاتساع رقعة الدولة العباسية، ووفرة ثرائها، ورَواج تجارتها، أثرٌ في خَلْقِ نهضةٍ ثقافية لم يشهدها الشرقُ من قبل.

وقد اهتمَّ الخلفاء العباسيون بعد استقرارهم في بغداد بالعديد من العلماء والأدباء، كما اهتموا بالمناظرات والمجالس العلمية فضلاً عن اهتمامهم بتدوين التراث العربي ونقل تراث الأمم المجاورة، وبذلك نشطت حركة الترجمة والنقل وكان بداية ذلك في خلافة المنصور (ت: ١٥٨هـ)، الذي يعدُّ المؤسِّس الفعلي للدولة العباسية.

وإلى جانب النهضة العمرانية، وضعَ المنصور بذور نهضةٍ علميةٍ كبرى؛ فهو أوَّل خليفة اهتمَّ بالعلوم، وكان مع براعته في الفِقه كَلِفاً في عِلْم الفلسفة وخاصَّة عِلم النجوم، وهو «أول خليفة تُرْجِمَت له الكتب السُّريانيَّة والأعجميَّة ككتاب **كليلة ودِمْنَة**، وكتاب أرسطاطاليس في المنطق، وإقليدس، وكُتُب اليونان»، وكان مِن شِعرِه[2]:

---

(1) امتدَّ هذا العصر خلال الفترة (١٣٢ - ٢٣٢هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٦م).

(2) تاريخ الخلفاء، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص ٤٣٦.

إذا كنتَ ذا رأي فكُن ذا عَزيمةٍ فإنَّ فسادَ الـرأي أنْ تَـتردَّدا

ولا تُمهل الأعداءَ يوماً بقُدرةٍ وبَادِرهم أن يَملكوا مثلها غَدا

وقد اجتذبَ المنصورُ الأطباءَ والنساطرة إلى مدينة بغداد، وتُرجمت له كتبٌ في الطب والنجوم والهندسة والآداب، وأُلِّفَت له كتب الحديث والتاريخ، كما ترجم «**جورجيس بن بَختيشوع**» مؤلَّفاتٍ كثيرة في الطبِّ من اليونانية إلى العربية؛ فخصَّص المنصور خزانات لهذه الترجمات وغيرها من المخطوطات القيِّمة، وحتى آخر عهده كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم تُحفظ في قصر الخلافة بمدينة بغداد حتى ضاقَ عنها على سعتِه، وكانت هذه الكنوز هي التمهيد لأكبر مشروع علمي في التاريخ الإسلامي: **مشروع بيت الحِكمَة**[1].

ومِن شِدَّة حرصِ المنصور على أمر هذه الخزانات؛ أنْ أوصى بها ولده المهدي (ت: ١٦٩هـ)، إلا أنَّ حركة الترجمة لم تحظى بالرعاية المعهودة حيث تراجعت زمنَ المهدي؛ لضعف اهتمامه بالجانب العلمي وانشغاله بمقاومة الزنادقة وحركة المقنَّع الخراساني، كان لشخصية المنصور تأثيرٌ واضحٌ في أحفاده من بعده، ومع قدوم الخليفة هارون الرشيد (ت: ١٩٣هـ)؛ توسَّعت مهام خزانة الحِكمَة

(1) العبَّاسيون الأقوياء: رحلة العباسيين منذ بداية الثورة وحتى نهاية عصرهم الذهبي، محمد إلهامي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

التي كانت في عهد المنصور.

أصبحت بغداد في عهد الرشيد كعبةَ العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة، وظهرَ في أيامه شعراء عظام من أمثال أبي العتاهية بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة، ومؤرِّخون من أمثال الأصمعي والواقدي وغيرهم كثير، فاتجه الرشيد إلى إخراج الكتب والمخطوطات التي كانت تُحفظ في جدران قصر الخلافة بعد أن تضخَّم رصيدها من التراث المدوَّن، والمخطوطات المؤلَّفة والمترجمة، لتكوِّن مكتبةً عامةً مفتوحةَ الأبواب للدراسين وطلاب العلم، وبدأ فأسَّس داراً رحبةً فخمة نقلَ إليها كل الذخائر وسمَّاها «**بيت الحكمة**» تقديراً لجلال رسالتها[1].

وقد فَطِنَ كثيرٌ مِن المستشرقين إلى الدَّورِ الكبير الذي لعبه بيتُ الحِكمَة في إثراء الحضارة الإسلامية، منهم المؤرِّخ الأمريكي **مارك غراهام**[2] الذي أشارَ إلى أنَّ هذا البيت قد استطاعَ بجيشه المكوَّن مِن تسعينَ عالِماً، أن يُترجم مجموعةً مذهلة من الكتب؛ ففي أقل

(1) بيت الحكمة في عصر العباسيين، د. خضر أحمد عطا الله، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص ٢٩.

(2) مارك غراهام: درسَ التاريخ الوسيط والدِّين في كلية «كونتيكت» في الولايات المتحدة الأمريكية، حصل على شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي من جامعة «كتنرتاون»، وهو كاتب وروائي اشتهرَ بروايته التاريخيَّة «ماريا السوداء» التي نُشرت عام ٢٠٠٠م، يسكن حالياً في ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة.

مِن قرنٍ واحد، أُثريت الحضارة الإسلامية بأشخاصٍ مثل أرسطو وبطلميوس وأفلاطون وإقليدس وجالينوس وأبقراط وأرخميدس وكثيرين غيرهم، وقد ترتَّب على ذلك أنْ انتقلتْ الفلسفة من أيدي الحُكَّام المسيحيين إلى أيدي المسلمين، وانتعشَ البحث العلمي والفلسفي في بغداد بشكلٍ هائل، واستخدمَ المسلمونَ المنطق اليوناني الذي اكتُشف مؤخراً لخلقِ ثورةٍ علمية في كلِّ مجالات المعرفة البشرية؛ في علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والفيزياء والكيمياء والطبِّ والتاريخ والأدب والزراعة والموسيقى والهندسة والملاحة، وبحلول القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري؛ أصبحَ الإسلام أعظمَ قوةٍ فكريةٍ شهدها العالَم[1].

ومنهم المستشرق الفرنسي **ل. أ. سيديو**[2] الذي أشارَ إلى أنَّ ظاهرة مدرسة بغداد في بدءِ أمرِها هي **الرُّوح العلمية** التي كانت سائدةً لأعمالِها، فكانت مبادئ أساتذتِها تقومُ على الانتقالِ من المعلومِ إلى المجهول، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظةً وثيقة لمُجاوزة المعلولات إلى العِلَل، وعلى عدم التسليم بما لا يستندُ إلى التجربة، وكان العرب في القرن التاسع (الثالث الهجري) أصحاباً

(1) كيف صنعَ الإسلام العالمَ الحديث، مارك غراهام، ترجمة: أ.د. عدنان خالد عبدالله، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة»، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص ٦٠.

(2) Louis Amélie Sédillot (1808 - 1875 A.D.).

لهذا المنهاج الخَصيب، فأضحى - بعد زمنٍ طويل - أداةً بيدِ علماء الزمن الحديث للوصول إلى أجملِ اكتشافاتِهم[1].

مدينة بغداد

سألتُ صديقي عن الحِكمَةِ مِن اختيار هذا الموقع لبناء مدينة بغداد، فأجابني على الفور بأنَّ هذه المدينة كانت تُعتبر من أعظم مدن العالَمِ في القرون الوسطى؛ في عمارتِها وحضارتِها وثقافتِها وما خلَّدته من آثارٍ علمية وأدبية وفنية، كما يُعتبر بناء هذه المدينة أعظم تجربة معمارية قام بها العرب المسلمون في العصر العباسي في منتصف القرن الثاني للهجرة، فكم تركت هذه المدينة من تأثيرٍ واضحٍ على المدنِ التي اختطَّها العرب في البلاد الإسلامية خلال حكمهم الطويل؛ ذلك لأنها كانت تعتمدُ على تنظيمٍ هندسيٍّ دقيق، وخبرات فنية ومعمارية وإمكانات مادية وجهود رائعة بذلها المنصور وأصحابه لتكون عاصمةً للدولة الإسلامية الجديدة التي كانت تمتدُّ من الأندلس حتى الصين.

كما تُعتبر هذه المدينة التي شَرَعَ المنصور في بنائها سنة ١٤٠هـ[2]، أُعجوبةً هندسيةً فريدة! فكانت تُسمى «**المدينة المُدَوَّرَة**» حيث أنها

(1) تاريخ العرب العام، ل. أ. سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، تعليق: سارة مجدي، عالَم الأدب للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م، ص ٣٩١.

(2) تاريخ الخلفاء: ٤٢٤.

دائرية الشكل، ولها مركز وأربعة شوارع تخترق تلك الدائرة.

ويعدُّ بناء مدينة بغداد نقطة تحوُّل حاسمة في تاريخ الحضارة والعِمَارة العربية والإسلامية، وتخطيط المدن في العالم الإسلامي كله؛ ذلك أنَّ تخطيط مدينة بغداد قد اتُّبِعت فيه خطوات من البحث والتدقيق، وقام على دراسات عميقة للموقع والتصميم وتوزيع المناطق المختلفة؛ أسفرت عن نظام هندسي يقوم على عمل حلقات دائرية من الأسوار لكي تحصُر المناطق السَّكنية وغير السَّكنية بينها، وتُحيط كلها بساحة دائرية كبيرة تتوسط المدينة، ويقوم في مركز الدائرة قصر الخليفة والمسجد الجامع الكبير، وكانت الطرق الرئيسية وأبواب المدينة الأربعة تتجه نحو مركز المدينة المُدَوَّرَة، وهو اسم من الأسماء العديدة التي كُنيت بها تلك المدينة في كتب المؤرخين القدماء[1].

وقد نَجَحَ العُمَّال المسلمين مِن فنَّانين وبنَّائِين ومُهندسين في القيامِ بكلِّ من طُلِبَ منهم تنفيذه على وجهِ الدِّقةِ والحِرص؛ فجاءت المدينة نموذجاً طيباً للفن المعماري العربي الإسلامي، ولئن اندثرت معالِم المدينة مِن مُدةٍ طويلة، فإنَّ صفحات التاريخ سجَّلت

(1) العمارة العربية الإسلامية: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، د. فريد محمود شافعي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٢٢.

لنا ملامح ذلك الفن، وأبرزت لنا بعض ما كان فيها من مظاهر هندسية، لا نملكُ معها إلا أنْ نُكبر تلك الأيدي العاملة المسلمة التي خطَّطت ونفَّذت، ثم أضْفَت على ذلك التخطيط فِقه العمل ورُوح العِلم ومَسحَةَ الجَمال[1].

وقد أولَى الخليفة المنصور اهتماماً خاصًّا باختيار الموقع الذي سيُقيم عليه مدينته الجديدة؛ فقد تفحَّصهُ تفحُّصَ خبيرٍ عارف، ودَرَسَهُ دراسةً مُستفيضةً عميقة، وأرسلَ الوفود إلى عدة مناطق، بل أنَّه لم يكتفِ بذلك وإنما تنقَّلَ بنفسهِ، ودعا بعض أصحاب تلك المناطق الذين يسكنون فيها، فشاوَرَهم في الأمر؛ فتكوَّنت بذلكَ للمنصور فكرة واضحة؛ وهي أنَّ هذه المنطقة هي أفضل منطقة لتشييدِ حاضِرَتِه[2].

ويجب الإشادة بالميزاتِ الخاصَّة لمنطقة أواسط العراق؛ منها أنَّ تربتها قليلة المِلح، صالحة للزراعة، وأرضها مستوية خالية من التَّضاريس التي تُعرقل الرَّي ومجاري الأنهار والترع، وانحدارها بطئ نحو دِجْلَة، مما يُمكِّن شق الترع للري ولغسلِ الأملاح وتصريف المياه الزائدة، بالإضافة إلى فوائدها في النقل وتيسير

(1) بغداد: مدينة المنصور المدوَّرة (رسالة ماجستير)، طاهر مظفَّر العميد، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص ٧.

(2) نفس المصدر السابق: ١١٨.

المواصلات، وتكوينها موانع دفاعية تُعيق تقدُّم الجيوش التي قد تُحاول غزوها.

والواقع أنَّه في هذه المنطقة اتَّخذت معظم الدول عواصمها؛ مثل الأكاديين والبابليين والساسانيين، وكلٌّ منهم كانت له دولة واسعة الأرجاء، ولابد أنَّهم في اختيارهم هذه المنطقة أدركوا ميزاتها الطبيعية والعسكرية التي تؤهلها لتقوم فيها عاصمة حصينة، ومدينة مُزدهرة[1].

وفي الجُملة؛ فقد ذكر المؤرخون أسباباً كثيرة لترجيح المنصور هذه البُقعة على غيرها؛ منها اقتصادية، ومنها عسكرية، ومنها صحية، فقالوا: إنَّ المادَّة تأتيها من الفُرَات ودِجْلَة وجماعة الأنهار، وتُحمل إليها طرائف الهند والسند والصين والبصرَة والأهواز ووَاسِط في دِجْلَة، وتجيئها مِيرَة الموصل وديار بكر وربيعة في دِجْلَة أيضاً، وهي بين أنهارٍ لا يصلُ إليها العدوُّ إلا على جسرٍ أو قنطرة، فإذا قُطعت الجسور ونُسفت القناطر؛ لم يصل إليها العدو، فهي قريبة من البرِّ والبحرِ والجبل.

بلغتْ هذه المدينة أوجَ تألقها في عهد الخليفة هارون الرشيد،

(1) بغداد مدينة السلام: انشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الأولى، د. صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥م، ج ١/ ص ٢٧ – ٢٨.

وقد سألَ الإمام الشافعيّ (ت: ٢٠٤هـ) يونس بن عبدالأعلى الصَّدَفي (ت: ٢٦٤هـ): **هل رأيتَ بغداد؟** فقال: لا. قال: «**ما رأيتَ الدنيا**»، وقالَ أيضاً: «**ما دخلتُ بلداً قطُّ إلا عدَدْتُهُ سفراً إلا بغداد، فإنِّي حين دخلتُها عدَدْتها وطناً**».

حكاية الاسم

سألتُ صديقي عن حكاية الاسم العجيب لهذا البيت العلمي العريق؛ فأخبرني أنَّ العباسيين كانوا مفتونين بالمسمَّيات الإسلامية، فنجدهم يطلقون «**قصر الخُلْد**»، «**قصر الفردوس**»، وغير ذلك مِن المسمَّيات ذات الدلالة القرآنية.

وقد عرَّف الرَّاغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥هـ) الحِكْمَة بأنَّها إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحِكْمَة مِن الله تعالى: **معرفةُ الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام**، ومن الإنسان: **معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات**، وهذا هو الذي وُصِفَ به لقمان في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَد آتَينا لُقمانَ الحِكمَةَ**﴾[1][2].

---

(1) سورة لقمان: ١٢.

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: د. صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م، ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

أول مَجْمَع للغة العربية!

وبالنظر إلى بيتِ الحِكمَة مِن خلال أنشطته اللغوية ومجالاته العلمية المختلفة، يتبيَّن لنا أنَّ هذه المؤسَّسة تمثِّل بحقٍّ **أوَّل مَجْمَعٍ للغة العربية**، وفق المفهوم المعاصر للمجامع اللغوية، مع مراعاة الاختلاف في الظروف والأحوال، فقد كان بيتُ الحِكمَة يضمُّ علماء من تخصصاتٍ مختلفة، منهم الطبيب والمهندس، ومنهم الفلكي واللغوي، وكانت اللغة العربية آنذاك تتعامل مع حصيلة ما وصلَ إليه الفكر الإنساني في جميع مجالات المعرفة، عن طريق اللغات اليونانية والفارسية والسُّريانيَّة والهندية القديمة، وكذلك اللاتينية، ولا سيما في بلاد الأندلس، ولعلَّ تأسيس المجامع اللغوية في أوروبا ابتداء من عصر النهضة هناك، قد تأثَّر بصورةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ بتلك المؤسَّسات العلمية واللغوية التي ازدهرت في بلاد الأندلس وإفريقية (تونس) وصقليَّة[1].

وسيكونُ لهذا البيت أثرٌ بعيد على العقل العربي وعلى العقل الإنساني جميعاً؛ فأمَّا العقل العربي فقد أصبحَ - كما يقول عنه د. شوقي ضيف - «عقلاً متفلسفاً، كما أصبح عقلاً علميًّا، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث إسهامه فيها

(1) العباسيون الأقوياء: ٤٦٠ - ٤٦١.

وإضافاته الجديدة حتى ليُضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية»[1].

وقد نالَ بيتُ الحِكمَة في عهد الرشيد عنايةً فائقةً بالكُتُب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافة الأجنبية؛ فعيَّن له الموظَّفين، وآتاه حاجته من الكتب، فَنَمَت واشتدت وأخذت تؤتي أُكُلها، ولا ريب في أنَّ هذه المؤسَّسة كانت جامعةً كبرى لطلاب العلم والمعرفة، وقد بلغ من اهتمام هارون الرشيد بالعلم والعلماء أنَّه كان يقبلُ الجزيةَ كتباً!، وهذا يدلُّنا على شغف الخليفة باقتناء الكتب وجلبها حتى أصبح بيتُ الحكمة أول جامعة إسلامية اجتمعَ فيها العلماء والباحثون ولجأ إليها الطلاب.

فكان بيتُ الحكمة بذلك أول مركز علمي يحقِّق للطلاب زاداً علميًّا وفيراً ويخرج لهم من جهد القائمين عليه ثقافةً مختلفةَ الاتجاه تشكِّل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها، وقد أكَّد بعض المؤرِّخين أنَّ بيت الحكمة كان جامعةً كبيرة، وأنَّ المكتبة كانت جزءاً منه[2].

---

(1) العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٦م، ص ١١٧.

(2) بيت الحكمة في عصر العباسيين: ٣٠.

الغاية من تأسيس بيت الحكمة

سألني صديقي عن هذه الغاية التي نَشَدَها القائمون على هذا البيت؛ فكانت إجابتي بأنَّ خلافة أبي جعفر المنصور قد شهدت أولَ عهد العرب بالعِلم؛ لأنَّه كان يُعزِّز جانبَ الحِكمَة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتاب أنْ يدوِّنوا الأسفارَ الكثيرة لإذاعة العلوم بين الناس؛ إذ لم يكن معروفاً عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب، وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث، وعلم العَرُوض الذي وضعه الله تعالى في صدورهم، وبضاعةٌ مُزجاة من النِّجامَة وعلك الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود، فلمَّا جاءت أيام الرشيد وابنه المأمون؛ عَرِفَ الناسُ الدعةَ والنعيم، بعد أنْ فرغوا من أعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة؛ وجَّهوا هَمَّهم إلى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طُمِسَ من معالم العلم؛ فكتبوا في جميع فروعه وفنونه؛ بحيث إنَّه لو جُمعت كتب أمَّة قديمة عهدٍ بالعمران ما وجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب[1].

ونتيجةً لذلك، تحولَّت مجالس الخلفاء والـوزراء والأمراء العباسيين إلى ما يشبه **ندوات علمية** يتناظر فيها العلماء من كلِّ

(1) حضارة الإسلام في دار السلام، جميل نخلة المدور، مؤسسة هنداوي، وندسور (المملكة المتحدة)، ٢٠١٨م، ص ١٥٧ – ١٥٨.

مكان، وهو الأمر الذي هيَّأ البيئة العلمية التي نشأ فيها بيت الحكمة؛ فالتشجيع العلمي والتزام الدولة الإسلامية بأداء واجباتها في هذا الميدان وإقبال الأمَّة على العلم، وتفتُّح القلوب للإسلام عقيدةً وعبادةً وشريعةً وأخلاقاً، كلُّ ذلك ولَّد نشاطاً علمياً واسعاً في مختلف ميادين العلم والمعرفة.

ولقد سعى القائمون على بيت الحِكمَة – وعلى رأسهم الرشيد والمأمون – إلى تنشيط حركة التأليف والترجمة والتصنيف؛ فازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهاراً عظيماً في العصر العباسي، حيث وصلت إلى المستوى الحضاري الذي تفخر به الأمم والشعوب المتحضِّرة؛ حيث كان يُقاس المستوى الحضاري بالآثار الفكرية المكتوبة.

وكانت الرسالة الأساسية لبيتِ الحِكمَة هي العمل على ترجمة الكتب اليونانية والسُّريانية إلى العربية، فامتلأت خزائن هذا البيت بالكتب المترجمة وأقبل الناس على قراءة هذه الكتب والتمعُّن فيها؛ فأدى ذلك إلى حركة فكرية جديدة في التأليف والنشر، أنتجت ثقافةً واسعةً مبنيَّةً على القديم والحديث، فكان أبرز أهداف بيت الحِكمَة هو نشر التعليم والمعرفة بين المسلمين.

ولَّما حرصت الدولة العباسية على المحافظة على الكتب والمصنَّفات التي تُترجم أو تُصنَّف، استلزم ذلك إنشاء جهاز إداري

يتولَّى الإشراف على هذه المهمَّة، فكان هذا البيت بمثابة الجهاز الإداري الذي فوَّضته الدولة ليكون الوعاء الحافظ لهذا التراث الحضاري.

فكانت السياسة العامة للدولة في هذه الفترة، تقومُ على الاهتمام بالعلم والعلماء وكل ما مِن شأنه أن يفي بهذا الغرض، حتى كان وكلاء الخلفاء ينقِّبونَ في كل بلدٍ من بلاد العالَم عن كنوز الثروة القديمة، ثم يجلبونها إلى العاصمة بغداد التي أصبحت كعبة العلم.

أمَّا الاستفادة من مزج الثقافات المختلفة والمعارف المتباينة، فقد كانت من أهم أهداف بيت الحكمة، وساعد على ذلك دخول الموالي والبرامكة وغيرهم من الطوائف الأخرى في أحضان الدولة العباسية، فكان العاملون في هذا البيت متنوِّعو الثقافات والمذاهب، الأمر الذي انعكس على الإنتاج الثقافي والمعرفي الذي اتَّسمَ بالانفتاح والعالمية.

وقد ساعدَ الموالي بدخولهم في أحضان الدولة العباسية على أن يكون هذا العصر هو العصر الذهبي في تاريخ الترجمة والنقل عند العرب، واستطاعوا لإتقانهم السُّريانيَّة واليونانية أن ينقلوا إلى اللسان العربي كل ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدِّنة، وأضافَ

البرامكة إلى هذه الخزائن الكثيرَ من الكتب وخصوصاً الفارسية في آخر عهد الرشيد؛ فقد ضمَّت خزائن بيت الحكمة كثيراً من الكتب بلغاتٍ متعدِّدة منها: العربية واليونانية والفارسية والسُّريانيَّة وبعض اللغات الهندية[1].

(1) الحواضر الإسلامية الكبرى: دراسة تشمل معالِم الحضارة في أمهات المدن الإسلامية في عصور ازدهارها، د. عصام الدِّين عبدالرَّؤوف، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

في رحاب بيت الحِكمَة

كان أبرز ما تحقَّق لنا في تلك الجلسة السابقة؛ معرفتنا بأهمية قراءة التاريخ، وذلك لأنَّ التاريخ في حياة المجتمع مثل الذاكرة في حياة الفرد؛ فإذا فقد الفرد ذاكرته فَقَدَ وعيه بذاته وأضاع شخصيته، والمجتمع الذي يفقد تاريخه، يسقط - لا مَحالة - في هاوية التيه.

وبعد هذه الجولة التعريفية بأبرز ملامح بيت الحِكمَة، أصبحنا على يقينٍ تامٍ بضرورة خوضِ هذه التجربة الملهمَة، كما قرَّرنا مشاركتها لأصدقائنا المقرَّبين من خلال محاولة نقلها إلى أكبر عددٍ ممكنٍ منهم، ونحنُ على يقينٍ أنَّهم لن يتأخروا عن خوضها في أقرب فرصةٍ ممكنة بحسب ما تيسَّر لكلٍّ منهم، ولعلها تكون بداية مُلهِمَة لكم جميعاً..

شرعتُ أنا وصديقي في ارتداء **نظارات الواقع الافتراضي**[1] التي نقلتنا بدورها إلى زمن الخليفة العباسي المأمون، المؤسس الفعلي لأحد أهم الصروح العلمية في الحضارة الإسلامية، وهو بيت الحِكمَة الذي سارت بذكرِهِ الرُّكبان من بغداد شرقاً وغرباً، وحينئذ

(1) VR Glasses.

تمثَّلتُ قول الشَّاعِر[1]:

فِدىً لك يا بغدادُ كلُّ قبيلةٍ ... مِنَ الأرضِ إلا خِطتي ودِيَارِيَا
فقدطفتُفيشرقِالبلادِوغربها ... وسيَّرتُ رَحلي بينها ورِكَابِيَا
فلم أرَ فيها مثلَ بغدادَ منزلاً ... ولم أرَ فيها مثلَ دِجْلَةَ وَادِيَا
ولا مثلَ أهليها أرقَّ شَمَائِلاً ... وأعذَبَ ألفاظاً وأحلَى مَعَانِيَا

وعند ذلك ظهرت لنا صورةُ هذا البيت المهيب ذو التصميم البدائي، والذي تكوَّن مِن طابقينِ على مساحةٍ كبيرةٍ من الأرض، ويقع في منطقةٍ تبدو راقية وسط أشجارٍ وارفةِ الظلال، طيبةِ الرائحة، تجري من تحتها قنوات المياه العذبة مِن وإلى الطريق المؤدِّي إلى ذلك البيت الذي رأيناه علامةً مكانيةً ينشُدها الكثيرُ مِمَّن يظهر عليهم سيماءُ العلمِ ونورُ الإيمان.

وقد راعَنا وجود عدد كبير من الناس ذوو سحناتٍ شتَّى وأوجهٍ مختلفة التراكيب من فرسٍ وهنود وصقالبة وزنج وعرب ورُوم، فهُم مجمعونَ على طلبِ الحِكمَة وإنْ اختلفتْ ألوانهم وأعراقهم، وكان في انتظارنا **رحَّالةٌ فارسيٌّ** تظهرُ عليه آثار النِعمَة، وهو طويلٌ أسمر، نحيفٌ خفيفُ العَارِضَين، مُعَرَّق الوجه، ناطقُ العينين، عليه ثيابٌ

(1) بغداد: ذكريات ومشاهدات، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدَّة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٣٥.

سود مِن الخَزِّ وقلنسوة مطوقة بِوَبَرٍ سُود مِن الأوبارِ الغاليةِ الثَّمن، وفي وجهه مهابةُ الملوك وجلالتهم من كثرة اختلاطه بهم ودخوله عليهم.

أخذَ هذا الرحَّالة في سؤالنا عمَّا نعرفه عن ماهية الحِكمَة، فانطلقنا نُجيبه بمَّا كنا في الحديثِ بصددِه خلال جلسة العَصْف الذهني الأخيرة، وقد تلطَّف بنا لَمَّا عَلِمَ صدقنا في تحرِّي صفة هذا البيت العلمي العريق، فأطلقَ علينا اسمَ «الزوَّار» وأبطَلَ عنَّا اسمَ «السائلين» الذي كان يُنعتُ به الغُرباء في ذلك الوقت؛ لقوله لي: «إنِّي والله لا أحبُّ اسمَ السائل إلا لطُلَّاب الإحسان، وأرفعُ قدرَ الكريم عن أنَ يُسمَّى به أمثال هؤلاء المؤمِّلين؛ لأنَّ فيهم الأحرار والأشراف، ومَن لعلَّه خيرٌ مِمَّن يقصد وأفضلُ أدباً، ولكنَّا نسمِّيكم الزوَّار»[1]، فوجَدَ صديقي لنفسه نصيباً من كلام الرحَّالة فأطلَقَ لسانه في الثناءِ عليه بما هو أهله.

وبينما كنَّا في حديثنا مع الرحَّالة، إذ راعَنا اصطفافُ بعض الحُرَّاس الذين كانوا يمشون مهطعينَ رؤوسهم في محيط المنطقة، ومعهم طائفةٌ من الغلمان وعددٌ من الوصفاء في أخفِّ كُسوةٍ وأجملِ ثياب، وعندما لَحَظَ الرحَّالةُ اضطرابنا لهذا المشهد غير المألوف، فإذا به يُهدِّأ من رَوعِنا بأنَّ ذلك مِن آثر اتِّفاق قُرب هذا البيت من قصر أمير المؤمنين، الذي كان حريصاً على أنْ يكونَ قصره على مقرُبةٍ مِن هذا المكان.

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ٥٦، بتصرُّف.

وكان مسيرنا مُحاذياً لإحدى القنوات التي تجري فيها المياه العذبة؛ ارتياداً للخُضرة التي تجنحُ إليها الطيور وتسرحُ فيها المَها والغِزلان، حيث كان أميرُ المؤمنينَ حريصاً على إشاعةِ البهجة في أرجاء المكان الذي يَفِدُ إليه طوائفٌ مِن أعراقٍ شتَّى يطلبون الحِكمَة ويقتفونَ أثرها في عاصمة الخلافة.

شدَّ انتباهنا ذلك اللِّبَاس العبَّاسِي الذي رأيناهُ شائعاً عندَ عُمومِ مَن قابلناهم؛ وهو يشتملُ على إِزَارٍ وقَمِيص ودُرَّاعَة[1]، وسُترَ[2] طَويلةٍ، وحِزَامٍ[3] على الوَسَط[4]، وهنا قرَّرتُ أن أستوقفَ أحد المارين في الطريق، وقد عَلَتْهُ هيبةُ العلم ووقاره، فسألته عن تلك الكتب التي يحملها، فأخبرني - بعد أن استغرب هيئتي - بأنَّه في طريقِهِ إلى إيداع نُسَخٍ من آخرِ مصنَّفاتِهِ إلى خِزَانَة الكُتُب، فلمَّا سألته عن السبب في ذلك، ذَكَرَ لي بأنَّه قد جرتْ العادة أن يُودِع العلماءُ

(1) الدُّرَّاعَة: جُبَّةٌ مِن صُوفٍ، مشقوقةُ المُقدَّم. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(2) السُّتْرَة: ما يُغطِّي الشيَّءَ ويُواريه. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(3) الحِزَام: ما يُشدُّ على الوَسَطِ مِن حَبلٍ ونحوه. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(4) الفَوْز بالمراد في تاريخ بغداد، سُليمان الدخيل، تقديم وتعليق د. محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١١٦.

نُسَخاً مِن مؤلَّفاتهم في بيتِ الحِكمَة[1]، فحينئذ خُيِّل إلينا ضخامة تلك الخِزَانَة التي تحوي هذا الكمَّ الهائل مِن مصنَّفات علماء الإسلام من شتَّى الآفاق.

الخليفة المأمون

ولفرطِ إعجابِهِ بذلك العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، طَلَبَ صديقي تعريفاً بالخليفة المأمون، وحينئذٍ أشار إليَّ الرحَّالةُ بالحديث بما أعلمُ مِن سيرته، وكنتُ قد رجعتُ في ذلك لبعض المصادر؛ فأجبتُ بأنَّ اسمه هو: **عبدالله أبو العباس بن الرشيد**، وُلد سنة ١٧٠هـ في ليلة الجمعة منتصف شهر ربيعٍ الأول، وكان أبيضَ رَبْعَة حَسَنَ الوَجه، واسعَ العينين، طويلَ اللحية رقيقها، ضيقَ الجبين، عريضَ المنكبين[2]، كان واسطة خلفاء بني العبَّاس؛ فقد كان يُقال: «لبني العبَّاس: فاتحة، وواسطة، وخاتمة؛ فالفاتحة: السَّفَّاح[3]، والواسطة: **المأمون**، والخاتمة: المعتضد[4]»[5].

---

(1) الحواضر الإسلامية الكبرى: ٢٤٧.

(2) العباسيون الأقوياء: ٥٠٠.

(3) اسمه: أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ابن هاشم، أول خلفاء بني العبَّاس، حكم في الفترة (١٣٢ - ١٣٦هـ)، توفي سنة ١٣٦هـ.

(4) اسمه: أبو العباس، ابن ولي العهد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، حكم في الفترة (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)، توفي سنة ٢٨٩هـ.

(5) تاريخ الخلفاء: ٤٨٦.

برعَ المأمون في الفقه والعربية وأيام الناس[1]، ولما كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها، حتى لُقِّبه بعضهم بـ «**أغسطس العرب**»[2].

عُرِفَ المأمون منذ حداثته بالجدِّ والحرصِ على طلب العلم والتفقُّه فيه حتى أصبحَ حُجَّةً في المسائل العلمية والفلسفية، ولَمَّا قَدِمَ بغداد سنة ٢٠٤هـ ظلَّ بها ما يقرُب من عشرينَ شهراً لا يستمع للغِنَاء، ثمَّ سمعه من وراءِ سِتار متشبِّهاً بالرشيد، واستمرَّ كذلك سبع سنين ثمَّ ظهَرَ للمغنين والملهين[3].

وكان عارفاً بالطبِّ وفوائد الأغذية، فقد أخرج مُحَمَّد بن حَفْص الأنْماطِي، قال: «تغدينا مع المأمون في يومِ عيد، فوضعَ على مائدتِه أكثر من ثلاث مئة لون، قال: فكلما وضع لون، نظر المأمون إليه فقال: هذا نافعٌ لكذا، ضارٌ لكذا؛ فَمَن كان منكم صاحبَ بَلغَم فليجتنب هذا، ومَن كان منكم صاحبَ صفراء[4] فليأكل مِن هذا،

(1) المقصود بأيام الناس: وقائعهم وحروبهم وملاحمهم، وهو أحد الوجوه في تفسير قوله تعالى ﴿**وَذَكِّرهُم بِأَيَّامِ اللهِ**﴾ (إبراهيم: ٥)، ومن أشهر أيام العرب: يوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم جبلة، ويوم البيداء، وغيرها من أيام العرب المشهورة.

(2) تاريخ العرب العام: ٢١٧.

(3) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ٩١.

(4) كان القدماء يعتقدون أنه ينشأ عن أن يتغلب في الجسم أحد العناصر الأربعة وهي الدم والصفراء والسوداء والبلغم، ومِن ثمَّ كانوا يقولون بأربعة أمزجة هي الدموي

ومَن غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا، ومَن قصدَ قِلَّة الغذاء فليقتصر على هذا، فقال له يحيى بن أَكْثم: يا أمير المؤمنين..

إنْ خُضْنا في الطبِّ؛ كنتَ **جالينوس**[1] في معرفتِه..

أو في النجوم؛ كنتَ **هِرْمس**[2] في حسابِه..

أو في الفقه؛ كنتَ **علي بن أبي طالب** في علمِه..

أو ذُكر السَّخاء؛ كنتَ **حاتم طيئ** في صفتِه..

أو الوفاء؛ فأنت **السَّمَوءل بن عَادِياء** في وفائِه.

فسُرَّ بهذا الكلام، وقال: إن الإنسان إنما فُضِّل بعقله؛ ولولا ذلك، لم يكن لحمٌ أطيبَ مِن لحم، ولا دمٌ أطيبَ مِن دم»[3].

وهنا تهلَّلت أساريرُ وجه صاحبنا الرحَّالة تعبيراً منه عن ارتياحه لحديثي، بما رويته من سيرة أمير المؤمنين، وإذا به يُلبِسُني

والصفراوي والسوداوي والبلغمي، أما المحدثون من علماء النفس فيوافقون القدماء على أن الأمزجة ترجع إلى مؤثرات جثمانية ولكنهم يخالفون في عدد الأمزجة وأسمائها إذ يعتدون بالإفرازات التي تفرزها الغدد الصم

كالغدة الدرقية والغدة الكلوية ويجعلونها المؤثرات الأساسية في تكوين المزاج. العباسيون الأقوياء: ٥٣٣.

(1) جالينوس: الطبيب اليوناني الأشهر بعد أبقراط، وصاحب المؤلَّفات الطبية الشهيرة.

(2) هِرْمس: فلكي مشهور ورأس في علم التنجيم.

(3) تاريخ الخلفاء: ٤٩٧.

قلنسوةً سوداءَ فاخرة من لِباسِ أهل الحِكمَة في ذلك الزمان، حيث جَرَتْ عادة الوُجهاء في مثل هذه المواقف أن يخلعوا الأُعطِيات على مَن يرونه أهلاً لذلك مِنَ الزوَّار.

عَرَبَة الكُتُب!

لاحظنا في مسيرنا لبيتِ الحِكمَة عربةً تَجُرُّها بعضُ الخُيولِ المدرَّبة، وعليها حِمْلٌ من القَمَاطِرِ الخشبيةِ المزيَّنة بنقوشٍ بديعة من الفضَّة المذهَّبة؛ وهي تلك الأوعية التي تُصَانُ فيها الكُتُب[1]، وكانت هذه هي الوسيلة المُتعارَف عليها عندهم في نقل الكُتُب وحفظها وصيانتها.

وهنا ذكرَ لنا الرحَّالة الفارسي أنَّ الرشيد لَمَّا ركب إلى الرِّقَّة في بعضِ أسفاره، حملَ معه ثمانية عشر صندوقاً من أسفارهم؛ ليقطعَ بمطالعتها زمانه، مع أنَّه لم يأخذ منها إلا نُخبة مما في خزائنه، وقد وُجِدَ في أحد قصوره التي بناها للتنزه خزانةَ كتبٍ تحتوي على أكثر من ألف كتاب، وحسبنا ذلك شاهداً على ما نرومُ ذكره من كثرة الصحف التي دوَّنها العربُ بين تعريبٍ وتصنيف[2].

قرَّرنا أن نستوقفَ سائقَ العربة لنسأله عن طبيعة الكُتُب التي

(1) القِمْطَر: ما تُصان فيه الكتب. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٧٥٩.

(2) حضارة الإسلام في دار السلام: ١٥٨.

تحويها تلك القَمَاطِر؛ فجاءنا الجواب بأنَّ هذه الحُمُولَة تُمثِّل دفعةً من مجموعةِ كُتُبٍ أتتْ للتوِّ من بلاد الروم عبر البحر، وقد تَمَّ إحضارُها بطلبٍ خاصٍّ من الخليفة.

وقد لاحظنا أنَّهم يخصِّصون جداولَ مائية لسقي الدواب والخيول، فإذا بصاحبنا الرحَّالة يُشير إلى أنَّه لَمَّا كان الحرُّ يشتدُّ وَهْجه في بغداد ويفتقرُ أهلها إلى رطوبة الماء افتقارَ النفسِ إلى الهواء؛ قلَّ أنْ يخلو سوقٌ من أسواقهم أو بَنِيَّة من مبانيهم من سِقايةٍ يجري بها ماءٌ من دجلة أو الفرات، ولذلك لا يسيرُ الرجلُ إلا محفوفاً بالشجر المزهر والرياحين التي يتغنَّى بوصفها الشعراء، وهذا دليلٌ على أنَّ بغداد كلها ماءٌ ونماء، ولأهلها في إقامة الأحواض عنايةٌ تامَّة، فيرفعونَ عليها عُمُداً مزخرفة من الرخام، ويعقدونَ من فوقها قباباً منقوشة بآياتٍ من الذهب، وما بينها النقوشُ الظريفة والرسوم التي تقرُّ بها العيون[1].

وهنا اندفعَ صديقي ليسأل هذا السائق عن سبب اهتمام الخليفة بهذا الأمر؛ فأفادنا بأنَّ هذا النهج من الاهتمام بشأن العلم والعلماء لم يبتدعه الخليفة المأمون، بل كان نَهْجاً دَأَبَ عليه خلفاء بني العبَّاس من لدن الخليفة المنصور حتى اليوم، فبعد أن استقرت الدولة للمأمون بعد سنواتٍ من الاضطرابات، عَمِلَ الخليفة على أن يتمِّم ما بدأهُ جدُّه المنصور، فأقبلَ على طلب العلم في مواضعه وداخلَ

(1) نفس المصدر السابق: ٣١ - ٣٢.

ملوك الروم، وسألهم بما لديهم من كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة المخزونة في بلادهم.

وحين وافقَ ملك الروم كلَّف المأمون لجنةً من المشرفين على بيت الحكمة وأهل العلم بالذهاب وتخيُّر المفيد من هذه الكنوز، ثم اختار مَهَرَة التراجمة وكلَّفهم إحكامَ ترجمتها، لتبدأ عملية الترجمة على غاية ما أمكن، ثم حرَّض الناس على قراءتها ورغَّبهم في تعليمها[1].

تابعَ السائق مسيره نحو بيت الحكمة بعد أن شكرناهُ على إفادتنا بهذه المعلومات الثمينة عن اهتمام الخليفة بأمر تلك الكتب المُستجلَبة من بلاد الروم، وعمله على تخصيص مجموعة من أفضل المترجمين لإخراج هذه الكتب باللغة العربية التي ستُصبح في غضون عدة عقود لغة العلم الأولى في العالَم.

حدائق بيت الحِكمَة

كانَ صاحبُنا الرحَّالة حريصاً على قضاءِ واجبِ الضيافة نحونا بكلِّ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً؛ فأحبَّ أن يُطلعنا على نواحي هذه الحدائق الغنَّاء التي تحيطُ ببيتِ الحِكمَة، ويُسقِيَنا من مائها الزُّلال، إذ كانت هذه المنطقة عامرةً بالأشجار الوارفة الظلال، وقد لفت انتباهنا انتقاءَ القائمين على هذه الحدائق لبعض الأشجار التي تتميَّز

(1) العباسيون الأقوياء: ٥٣٤.

بظلالها الكثيفة، الأمر الذي يوفر مساحةً كبيرةً لجلوس بعض زوَّار البيت للمُدارَسَة أو الحديث في شؤون العلم والتعلُّم.

وقد أشارَ إلى يمين الساحة التي تواجدنا فيها؛ فإذا هي جناتٌ تُزرع فيها البقول والرياحين والرُّمان، وسائر الفاكهة حتى تكونَ رَوْحاً وريحاناً واستراحاً للنفس، وعلى الجدار الخارجي للبيت مما يلي تلك الساحة نقوشٌ في رسمٍ متلوِّن وفسيفساء ذهبية، وعلى دائر الأبواب الخارجية كتابةٌ يتخذونها من الزجاج الملوَّن تمثِّل غصوناً وثماراً وأزهاراً وأشكالاً، فيها كلُّ غريبٍ من الإبداع، فتمتلئُ العين ارتياحاً من النظر إلى إشراقها.

وكان مما أعجبنا من جمال مبانيهم ما يتأنَّقونَ في زينته من الخارج أيضاً؛ فإنَّ القبابَ التي يرفعونها من فوق السُّطُوح على عُمُدٍ قد دُقَّت أمثال الرِّماح ليُخيَّل للرائي أنَّها لا تستندُ على شيء، وكأنَّما هي معلَّقة في الهواء[1].

كما اطَّلعنا على ساحةٍ كبيرة على مقربةٍ من طرف البيت الشمالي تُنوَّخ فيها الجِمَال الغادية والرائحة بالكتب المترجمة في طريقها إلى بعض الأمصار البعيدة، وفي ذلك الحين انطلقَ بنا صديقي نحو هذه الساحة وإذا بمجموعةٍ من طلبة العلم - كما نسمِّيهم - جالسين

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ٣١.

تحت ظلِّ شجرةٍ عظيمة، وقد أخذوا على عاتقهم قراءةَ واحدةٍ من القصائد الشعرية القديمة التي تعود للعصر الجاهلي، وهي التي يُطلق عليها «**المعلَّقات**»، فَجَالَ بخاطري سؤالهم عن سبب تسمية مثل هذه القصائد بالمعلَّقات، فأجابني أحد الجالسين بأنَّ ذلك يعود لعدة أسباب، منها:

* أنَّها كانت تُعلَّق في عمود الخيمة.
* أنَّها تَعلَقُ في الأذهان.
* أنَّها كانت تُكتب بماء الذهب وتُعلَّق على أستار الكعبة.
* تشبيهاً لها بعقود الدُّر المعلَّقة على النُّحور.

والحقيقة أنَّ الشِّعر كان هو رأسُ مالِ العرب كله في مجال العلم قبل بزوغ شمس الإسلام، وكان له دورٌ بارزٌ ملموسٌ في المجتمع العربي، يقوم الشاعر العربي وينفخ روحاً جديدة في الأقوام الميتة روحياً وفكرياً، ببلاغته وفصاحته وقوة حجَّته، كما أنَّه كان يستخدم هذا الجوهر الثمين فيرفعُ به أقواماً ويضعُ به آخرين.

وهنا عقَّب صاحبُنا الرَّحالة على كلام صديقي بقوله: «صدقت في أنَّ العربَ لم تخلِّد أيَّامها إلا بالشِّعر، ولا أحد ينقص من قيمة الشِّعر، لكنَّ الاعتراف بفضيلة الشِّعر لا يستلزم الانتقاص من فضيلة النثر. أمَّا سبب صدود العرب عن النثر فلأنَّهم كانوا أمَّةً

أُمِيَّة، لا تقرأُ ولا تكتب، فلمَّا جاءَ الإسلام بالدِّين تعلَّموا فكتبوا، وانتهت إليهم محاسن الأُمم وتجمَّعت فيهم، ومِن تلك المحاسن النثر، ثمَّ ألا ترى أنَّ القرآنَ ليس بشِعر!»[1].

ولمَّا كان صديقي على درايةٍ بهذه المعلَّقات الشعرية، عَلِمَ بأنَّ هذه القصيدة التي يقرؤنها تعود للشاعر المعروف **لَبيد بن ربيعة** (ت: ٤٠هـ/ ٦٦٠م)، فتذكَّرتُ عناية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بِشِعرِ لَبيد؛ فقد ذُكر أنَّها كانت تروي له نحواً مِن ألفِ بيتٍ من الشعر!، ونظراً لهذا الذوق العالي الرفيع للشعر لدى السيدة عائشة رضي الله عنها، كان الشعراء يعرضون عليها قصائدهم، وهذا **حسَّان بن ثابت** ﷺ الذي كان معلِّم الشعراء في الأنصار دون منازع، كان يدخل عليها وينشدها شعراً[2].

وهنا سألتُ صديقي: كيف عرفتَ أنَّ هذا الشِّعر الذي كان يُنشده أحد الجالسين يعود إلى العصر الجاهلي؟ فوضَّح لي بأنَّ القصيدة الجاهلية - في الغالب - كانت تسيرُ في طريقٍ مرسوم؛ يفتتحها الشاعر بوصف الأطلال، وبكاء الديار، وذكر الأحبَّة ثم

---

(1) انظر: الحَدَقي (رواية)، أحمد فال ولد الدين، دار البشير، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م، ص ٢٢٨.

(2) صحيح الإمام البخاري، كتاب المغازي، رقم الحديث: ٤١٤٦.

يمضي في وصف الظعن[1]، ويتخلَّص من ذلك إلى موضوعاتِ قصيدته مِن فخرٍ ومدحٍ وهجاءٍ وحكمة وغير ذلك[2].

فعجبتُ، كيف تصدُر هذه المعاني الراقية من أقوامٍ يعيشونَ في عصر الجاهلية؟! فأجابني بأنَّ هذا العصر لم يُقصد به غَلَبَة الجهل الذي هو ضد العِلم، بقدر ما يعني الضلال الديني، فاطمأنَّ قلبي لجوابه الذي أزالَ به عني هذا الفهم المغلوط لمعنَى الجاهلية.

بَلَغَ بنا المسير مع صاحبِنا الرحَّالة في هذه الحدائق المورِقَة إلى شجرةٍ عظيمة يجلس تحتها مجموعة من طلاب بيت الحِكمَة، وكانوا ينشِدونَ أبياتاً من شِعْر الإمام الشافعي عَرَفَها صاحبُنا الذي أخبرَ بأنَّه كانَ معروفاً عندهم في بغداد باسمِ «**نَاصِر السُّنَّة**»[3]، كما كانوا

---

(1) الظعن: سير البادية لنُجْعَةٍ أو حضور ماء أو طلب مربع، أو تحوُّلٍ من ماءٍ إلى ماء، أو من بلدٍ إلى بلد، ويُقال لكل شاخص لسفرٍ في حجٍّ أو غزوٍ أو مسيرٍ من مدينةٍ إلى أخرى: ظاعن، وهو ضد الخافض، ويُقال: أظاعِنٌ أنت أم مُقيم؟. انظر: لسان العرب، مادة (ظَعَنَ).

(2) في النص الجاهلي: قراءة تحليلية، د. عبدالرزاق حسين، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ١١.

(3) قال حَرْمَلة: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «**سُمِّيتُ ببغداد ناصِرَ السُّنَّة**». انظر: البداية والنهاية، الإمام الحافظ ابن كثير، تحقيق: الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط والدكتور بشَّار عوَّاد معروف، دار ابن كثير (دمشق – بيروت)، الطبعة الخامسة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ج ١١/ ص ١٧.

يتداولون الحديثَ حول مكانته في اللغةِ والشِّعر.

أخذَ صاحبُنا في الحديث عن مكانة الشافعيِّ في اللغة وشعر العرب؛ فهما من أخصِّ العلوم التي عُنِيَ بها وكان له فيها امتيازٌ ظاهر، وقد بلغ الشافعي من التمكُّن في ذلك بالقدرِ الذي جعلَ العلماءَ مِن بعدهِ يختلفونَ في الاحتجاج بلُغته، وشهد له أكابر أهل اللغة في زمانه وبعده بعلوِّ كعبه في هذا الباب؛ ومن أولئك الأصمعي وهو إمامُ أهل زمانه في علم اللِّسان، فكان يقول: «صحَّحتُ أشعار الهذليين على شابٍّ من قريش بمكَّة يُقال له: محمد بن إدريس الشافعي»، وكان الأصمعي أصغر من الشافعي بخمسةٍ وعشرين عاماً!

وكان الشافعيُّ قد خرجَ في صِباه إلى بوادي هُذَيل وأمهات القبائل، فشافَهَ الأعراب، وأقامَ بين ظهرانيهم سنين، لازَمَهم فيها حِلاً وترحالاً، وأخذَ عنهم اللغة والشعر، وأتى على شعر هُذَيل حفظاً، واستوعبَ كثيراً من الأخبار والأشعار والأنساب وأيام العرب.

يقولُ عنه الزعفراني – وهو من الفُصَحاء البلغاء –: «ما رأيتُ أحداً قطُّ أفصحَ ولا أعلمَ من الشافعي، كان أعلمَ الناس، وأفصحَ الناس، وكان يُقرَأُ عليه من كل الشعر فيعرفه، ما كان إلا بحراً»[1].

(1) عبقرية الإمام الشافعي: المَدَد والمِدَاد، مشاري بن سعد بن عبدالله الشَّثْرِي، دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، محرَّم ١٤٤١هـ، ص ٦٣ – ٦٤.

وهكذا، فقد تبوأ الشافعيُّ مكانةً ساميةً في سُلَّم اللغة وشعر العرب، فلمَّا قدمنا على هؤلاء الطلاب الذين يتداولون أشعارَ الشافعي، ذكرنا حديث النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»[1]، فطلبَ صاحبُنا منهم أنْ يقرأوا علينا بعضاً من أشعاره في الحِكمَة، فأتحفونا بمجموعةٍ من مختاراته الشعرية:

* يقول الشافعيُّ رحمه الله:

عِلمي بِسَابقَةِ المَقْدُورِ أَلزَمني ... صَبري وَصَمتي فَلم أَحرَصْ وَلم أَسَلِ

لو نِيْلَ بالحِرْصِ مطلوبٌ لما منع الـ ... ـكَلِيْمُ موسى، وكانَ الحَظُّ للجَبَلِ

وَحِكمةُ العَقلِ إِنْ عَزَّتْ وَإِنْ شَرُفَتْ ... جَهالةٌ عِندَ حُكمِ الرِّزقِ والأَجَلِ

* وقد سَمِعَ محمَّد بن عبدالله بن عبدالحكم الشافعيَّ ينشد:

سَأضربُ في الآفاقِ شَرقاً ومَغرباً ... وَأكسِبُ مَالاً أَو أَموتُ غَريبا

لَئِنْ تَلفتْ نفسي فللَّهِ دَرُّها ... وإِنْ سَلِمتْ كَانَ الرجوعُ قَريبا

* أنشد محمد بن الحسن للشافعيِّ رحمه الله:

عَواقِبُ مكْروهِ الأمورِ خِيَارُ ... وأيـامُ شَرٍّ لا تَـدومُ قِصَارُ

وليس بباقٍ بؤسُهَا ونَعِيْمُها ... إذا كـرَّ لَـيْـلٌ ثـمَّ كـرَّ نهـارُ

---

(1) صحيح الإمام البخاري، رقم الحديث: ٦١٤٥.

* أنشدَ بعضُ أصحابِ الشافعيِّ للشافعيِّ رحمه الله:

إنِّي بُلِيْتُ بـأَرْبَـعٍ يَرمِيْنَني بالنَّبْلِ عَنْ قوسٍ لهُنَّ صَرِيْرُ
إبليسُ والدُّنْيا ونَفْسي والهَوى أنَّى يَفِرُّ مِنَ الهَوَى نِحْرِيْرُ؟!

* أنشدَ أبو الحسين بن اللبَّان الفَرَضي للإمام الشافعي:

ما حَكَّ جِلْدَك مِثْلُ ظُفْرِكْ فَـتَـوَلَّ أنـتَ جَمِيْـعَ أمْـرِكْ
وإذا قـصَـدْتَ لِحَـاجَـةٍ فاقْصِدْ لِمُعْتَرَفٍ بِقَدْرِكْ

* سمعَ الربيعُ بن سُليمان ابنَ الإمام الشافعي يقول: سمعتُ أبي ينشدُ:

على كلِّ حالٍ أنتَ بالفضلِ آخِذٌ وما الفضلُ إلا للذي يتفضَّلُ

* ويقول:

كُـلَّـمـا أدَّبـنـي الـدَّهـ ـرُ أرانِـي نَـقْـصَ عقْلِي
وإذا مـا ازدَدْتُ عِـلْـمًـا زادَنِـي عِـلْـمًـا بِـجَـهـلِـي

* سمع المُزَنيُّ الشافعي يُنشد:

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغْتَنِمْهَا فعُقْبى كُـلِّ خافِقَةٍ سُكُونُ
ولا تغْفَلْ عنِ الإحسانِ فيها فما تدري السكونُ متى يكونُ

* ويقول:

تحكَّمُوا فاستطالوا في تحكُّمِهِمْ عمَّا قليلٍ كأنَّ الحُكمَ لم يَكنِ

لو أنصفوا أُنصفوا لكنْ بَغَوا فبَغَى عليهمُ الدهرُ بالأَحْزَانِ والمِحَنِ
فأصبحوا ولسانُ الحالِ يَنشدُهم هذا بذاك ولا عَتْبٌ على الزَّمنِ

* وسُمِعَ الشافعيُّ يقول في معنى غِنَى النفس:

إذا شئتَ أن تَحْيَا غنيًّا فلا تَكُنْ على حالةٍ إلا رَضِيتَ بِدُونِها

* وسُمِعَ الشافعيُّ يقول:

ومنزلةُ السَّفِيهِ مِنَ الفَقِيهِ كمَنْزِلَةِ الفقيهِ من السَّفيهِ
فهذا زاهِدٌ في قُرْبِ هذا وهَذا فيهِ أزْهَدُ منهُ فيهِ
إذا غَلَبَ الشَّقاءُ على سَفِيهٍ تَنَطَّعَ في مُخالفةِ الفَقِيهِ

* ويقول الشافعي:

عُمْدَةُ الخيرِ عندنا كلماتٌ أربعٌ قالهنَّ خيرُ البريَّه:
«اتَّقِ الشبهاتِ، وازْهَدْ، ودَعْ ما ليسَ يعنِيْكَ، واعَمَلَنَّ بِنِيَّه»

* أنشدَ الربيعُ بن سليمان للشافعي:

لا تأسَ في الدنيا على فائتٍ وعِنْدَكَ الإسلامُ والعافِيَهْ
إنْ فاتَ أمرٌ كُنْتَ تسعى له ففيهما مِن فائتٍ كافِيَهْ

* ومن المرويات عنه رحمة الله عليه:

يا ناظِري بالكِسْوَةِ البَالِيَهْ تحتَ ثيابي هَمٌّ عاليَهْ
وإنَّما النَّاسُ بآدابهم والمالُ في كَفِّهم عَارِيَهْ

* ويقول:

قَنِعْتُ بالقُوْتِ مِنْ زماني وصِنْتُ نفسي عنِ الهَوانِ
خَوْفًا مِنَ الناسِ أنْ يقولوا: فُضِّلَ فلانٌ على فلانِ
مَنْ كُنتُ عَنْ مالِه غنيًّا فلا أبالي إذا جَفَاني
ومَنْ رآني بعَيْنِ نقْصٍ رأَيْتُه بالتي يَرَاني
ومَن رآني بعيْنِ تِمٍّ رأَيْتُه كامِلَ المعاني[1]

ثمَّ خَتَمَ هؤلاء الطلاب بما قال ابنُ خُزيمة: أنشدني المُزَنيُّ، قال: أنشدنا الشافعيُّ لنفسه[2]:

فما شئتَ كانَ وإنْ لم أشأْ وما شئتُ إنْ لم تَشَأْ لم يكنْ
خَلَقْتَ العِبَادَ على ما علمْتَ ففي العلم يجري الفَتَى والمُسِنّ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ ومنهم قبيحٌ ومنهمْ حَسَنْ
على ذا مَنَنْتَ وهذا خَذَلْتَ وهذا أعنْتَ وذا لم تُعِنْ

تابعنا المسير بمعيَّة صاحبِنا الرحَّالة في هذه الحدائق المحيطة بالبيت إحاطةَ القلادةِ بالعُنُق، وهي ممتلئةٌ بِشَجَر الأرَاك[3] الذي

(1) ديوان الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة د. مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص ٥٧ – ١٥٢.
(2) البداية والنهاية: ١١/ ١٩.
(3) اسمه العلمي: «سلفادورا بيرسيكا».

يُتَّخَذُ منه السواك، وقد كنتُ على علمٍ بأنَّ هذا النوع من الشجر إنَّما ينبتُ في الصحاري والمناطق الحارة ويكثر في الجزيرة العربية وأفريقيا، ويُذكر أنَّ الدواب ترعى ورق شجر الأراك وتأكله، بل هو محبَّبٌ إليها ومرغوبٌ، وهو من خير المراعي للدواب، وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على استعمال السِّواك؛ فقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مع كُلِّ وُضُوءٍ**»[1]. ويبدو أنَّ السبب في انتقائهم لهذه النوعية من الأشجار؛ أنَّها دائمةُ الخُضْرَة، وطيبة الرائحة، وأوراقها بيضاوية الشكل تخلو من الشوك، مما يضفي على المكان شكلاً جماليًّا يبقى أثره في نفوس الزائرين لبيت الحكمة.

كما أطلعنا الرحَّالة على أشجار الزيتون التي يكثُر وجودها على أطرف الطريق، ولا غَروَ في ذلك؛ فهي الأشجار المعروفة بأنَّها دائمة الخُضرة، وبأنَّها تعمل على حماية التربة من التآكل، وتشغل شجرةُ الزيتون، وغصنُ الزيتون بالتّحديد، مكانةً جليلة في وجدان البشر رجالاً ونساءً، وتُعتبر رمزاً عالمياً للسلام والحكمة والوفاق والوئام منذ سالف الأزمان. ولهذه الأسباب، لا تقتصر أهميَّة هذه الشجرة على البلدان التي تنمو فيها، وإنّما تُلامس أيضاً شتَّى شعوب الأرض.

وقد ذكَّرني صديقي بأنَّ فلسطين من أكثر الدول التي تشتهر بزراعة شجر الزيتون، فهي ذات تاريخ متجذِّر عندهم منذ آلاف

(1) صحَّحه الألباني، رقم الحديث: ٥٣١٧.

السنين، وتمتلك فلسطين أقدم شجرة زيتون في العالم؛ وتوجد في قرية الولجة جنوب مدينة القدس، والتي قدَّر خبراء منظمة اليونسكو عمرها بحوالي ٥٥٠٠ عام!.

توقَّف بنا صاحبُنا عند إحدى أشجار الزيتون التي تقع في مقابل الطريق المؤدِّي لبيت الحكمة؛ وكان يجلس في ظلِّها ثلاثةٌ من الأقران يتدارسون إحدى المسائل العلمية، وبعد أنْ ألقينا عليهم تحية الإسلام، سألناهم عن المادة التي يتدارسونها؛ فأخبرونا بأنَّ يعملون مترجمين في بيت الحكمة، وعليهم مراجعة بعض المصطلحات اليونانية القديمة التي ربما تعرض لهم أثناء عملهم في ترجمة بعض الكتب القادمة من ملوك الروم مؤخراً، وقد علمنا أنَّهم تلامذة أحد المترجمين الأثبات.

كنتُ سعيداً لمقابلة هؤلاء المترجمين العاملين ببيت الحكمة، ولأنَّ الترجمة كانت النشاط الرئيس لهذه المؤسَّسة، فكان لزاماً علينا سؤالهم عن بعض ما يلوح علينا من أسئلة، وقد تقدَّم صديقي وسألهم عن البدايات الحقيقية لحركة انتقال علوم الحضارات الأخرى إلى العالَم الإسلامي، فأجابه أحد هؤلاء بأنَّ تلك البداية ترجع إلى شخصين:

* الحارث بن كَلَدَة الثَّقَفِي: طبيبُ العرب.

* خالد بن يزيد بن معاوية.

الأول منهم كان معاصراً للنبي ﷺ وتُوفِّي سنة ٣٣هـ، والثاني كان حفيداً لأول خلفاء بني أميَّة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وتُوفِّي سنة ٩٠ هـ.

مَوكِب الخَلِيفَة

وفي أثناء حديثنا الشيِّق مع هذا المترجم، أشارَ لنا صاحبُنا بالنظر ناحية الخلف؛ فإذا بموكبٍ مهيبٍ ينتهي إليه غاية البهاء والعظمة، تتقدَّمه صفوفٌ من الحرَّاس متقلِّدينَ سيوفهم، يتبعهم قطعةٌ من الجنود، وطائفةٌ من الغِلمان قد حملوا المئونة على الخزائن الخفيفة[1]، وبينهم عددٌ من الوصفاء المزيَّنين بالجواهر الثمينة، فأيقنَّا أنَّ ذلك الموكب لا يعودُ إلا للخليفة أو لوَلِيِّ عهده.

أحسَّ صاحبُنا باضطرابنا بعضَ الشيء؛ فأفصحَ لنا أنَّ ذلك هو موكب أمير المؤمنين في طريقِهِ لإحدَى رحلات الصَّيد، وقد لفَتَ انتباهي ذلك الزِّي المميَّز الذي كان يرتديه الخليفة؛ فكان لِبَاسُهُ قَبَاءاً أسوَد يَصِلُّ إلى الرُّكبَة، ومفتوحٌ عند الرَّقَبَة بحيث يظهر القُفْطَانُ[2] زَاهِياً من تحتِه، وأكمامُهُ ضيِّقة، وكان على رأسِهِ قَلَنْسُوَة طويلة يُسمُّونَها «الرُّصَافِيَّة»، وكان والده الرشيد أوَّلُ مَن ارتدَى

(1) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ٨٥.

(2) القُفْطَان: ثوبٌ فضفاض سابغ مشقوق المقدَّم، يضمُّ طرفَيه حِزَام، ويُتَّخَذُ من الحريرِ أو القطن، وتُلبَس فوقَه الجُبَّة. انظر: المعجم الوسيط: ٧٥١.

ذلك الضَّرْبَ مِن القَلانِس[1]، كما أخبَرنا الرحَّالة بأنَّ نساءَ الخلفاء كُنَّ ينتقلنَ في مواكبَ خاصَّةٍ بهن؛ فالخيزران - أمُّ الهَادِي والرَّشِيد - كانت تُنقل في موكبٍ عظيمٍ من الغِلْمَان المزيَّنة، والخيل عليها كِسْوَة من الدِّيبَاج والحِلْيَة الثقيلة من الفِضَّة[2].

وقد أحبَّ صاحبُنا أنَّ يُتحِفَنا بشيءٍ من صفاتِ أميرِ المؤمنين؛ فوَصَفَه بـ«أنَّهُ زينةُ أولاد الرَّشيد، وسِمَتُه سِمةُ خيرٍ وفضلٍ وعفاف، لم أرَ في أبيه خَلَّة من الخلال المحمودة ولا خُلُقاً من الأخلاق الرضِيَّة إلا وجدتها في نفسِه طبيعةً تسمو به إلى أرفعِ مقامٍ في أدبِ الدُّنيا والدِّين، ولم أرَ في أولاد الملوك غير البرامكة مَن يتعشَّق العلوم الحِكميَّة على حداثة سِنِّه ويُقيم بين العلماء لمناظرتهم في جميع أنواع العلوم مثله، فما أذكرُ أنِّي دخلتُ عليه مرةً إلا وقد لقيته في مجلسٍ من العلماء والأدباء وهو متوسطٌ فيهم كالشمس مِن حولِها الضياء.

وقد قصدتُ بابه من عهدٍ قريب مع أميرٍ من البرامكة - قبل نكبتهم الشهيرة سنة ١٨٧هـ - فألفيتُ بحضرته جماعة من أئمة العلم؛ منهم الخزيمي والعبَّاس بن زفر ومنصور النمري، ومحمد

---

(1) الحياة الاجتماعية في بغداد: ٥٧٥ - ٦٥٦هـ/ ١١٧٩ - ١٢٥٨م (رسالة ماجستير)، محمد عبدالله أحمد القدحات، إشراف: أ.د. تقي الدِّين الدوري، جامعة مؤتة، عمَّان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٩٤.

(2) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ٨٥.

الراويَّة المسمَّى بالبَيْدَق لِقصره وهو المنشد للرشيد أشعارَ المحدَثين، وفتًى من أمراء آل نوبخت يُقال له: الفضل بن سهل وهو خليل المأمون وصديقه، لا يصبر على فراقِه في نهارٍ ولا ليل، وإذا رَكِبَ في موكبه معه على النجائب المخضوبة بالحِنَّاء وعليها القطوع والديباج، وكان بجانب المأمون جماعةٌ من النُّحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر، منهم الكسائي وأبو محمد مؤدِّباه وهم يتباحثونَ معه في مسائل نحوية، وكنتُ أسمعه يقولُ لهم: «زيد» على الرفع، والكسائيُّ يقول: «زيداً» منصوبة بإنَّ، فتطارحَ العلماء الجملةَ الإعرابية التي دارَ عليها كلامهم وهي: «إنَّ من خير القوم أو خيرهم نية زيد»، فأجمعَ رأيهم على موافقة المأمون فتحققتُ فضله في ذلك اليوم وعرفتُ أنَّه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلاً منه، كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك.

وكان إذا جلسَ للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدباً وفائدة، ولم يكن شيءٌ من الملاهي أحبَّ إليه من لعب الشَّطْرَنج يمارسه كأبيه؛ لاستنباط الحِيَل فيه، حتى لم يكن في الناس مَن يفضُله فيه، وهو القائل في الشَّطْرَنج:

أرضٌ مربعة حمراء من أدَم ... ما بين إلْفَيْن موصوفين بالكرمِ

تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبهاً ... من غير أن يسعيا فيها بسفكِ دمِ

هذا يُغير على هذا وذاك على هذا يُغير وعينُ الحرب لم تَنَم
فانظُر إلى الخيل قد جاشت بمعركة في عسكرين بلا طبلٍ ولا عَلَم

وأمَّا لعبه بالأكرة والطَّبْطابة[1]، ورميه في البرُجاس النُّشَّاب، وكرُّه بالصوالجة في الميدان، واقتناؤه طرائف الطير والخيل والحيوان، واتخاذه الدِّيَكَة ليُقاتل بعضها بعضاً، والأكباش ليُناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذِّ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أنْ يُعِدُّوا أمثال هذه الملاهي على سبيل المفاخرة والمباهاة؛ فإنَّه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من المُلك المترَف، وهو غير غافلٍ عن اتخاذ الأشياء التي تعودُ عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة، فقد عَنِيَ بجمع آثار الملوك من ثيابٍ وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك، حتى جمع من طرائفها القدرَ العظيم الثمين، رأيتُ في بعض مجموعاته صندوقاً أودعه خواتم الخلفاء جميعاً من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومَن كان يقومُ بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين، فكانَ جامعاً لجميع خواتمهم إلا خاتم النبي ﷺ، ولو لم يكن ضاعَ من عثمان رضي الله عنه في بئر أريس كما تواتر في الأنباء، ما كفَّ عن طلبه حتى يجده، وهذا ما أذكره من فضائل هذا الخليفة، وليس هو إلا النزرَ

---

(1) طِبطاب/ طَبطابة: خشبةٌ عريضة يَلعب بها الفارسُ بالكرة، من السريانية «Taptopo». انظر: المعجم المفصَّل في المعرَّب والدَّخيل، د. سعدي ضنّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٣٣٢.

اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه»[1].

ثمَّ قصَّ علينا أحدُ الجُلاس قصةَ رجلٍ تظلَّم للمأمون مِن عاملٍ له، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما تَرَكَ لِي فِضَّةً إلا فَضَّها، ولا ذَهَباً إلا ذَهَبَ به، ولا غَلَّة إلا غَلَّها، ولا ضَيْعَة إلا أَضَاعَها، ولا عِلْقاً[2] إلا عَلِقَه، ولا عَرَضاً إلا عَرَضَ له، ولا ماشيةً إلا امْتَشَّها[3]، ولا جَلِيلًا إلا أَجْلَاه، ولا دقيقاً إلا أَدَقَّه[4]. فعَجِبَ من فصاحته وقَضىَ حاجَتَه.

ابتسمَ صاحبُنا من فصاحةِ هذا الرَّجل، منبهراً من حلاوة حديثه وفصاحة مخارجه، ثمَّ أخذَ يقصُّ علينا خَبَرَ أحد حُرَّاس المأمون ويُدعَى عَمرو بن سعيد بن سَلْم الذي قال: كنتُ في نوبتي ليلةً، فخرجَ متفقِّداً مَنْ حَضَر، فعرفته ولم يعرفني، فقال: مَن أنت؟ قلتُ: عَمْرو، عَمَرَك الله، ابن سعيد، أسْعَدَك الله، ابن سَلْم، سلَّمك الله. فقال: تَكْلَؤُنا منذ الليلة؟ قلتُ: اللهُ يَكْلَؤُك قَبْلي، وهو خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين، فقالَ المأمون[5]:

---

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ١١٩ – ١٢٢.

(2) العِلْقُ: النَّفيس من كل شيءٍ يتعلَّق به القلب. انظر: المعجم الوسيط: ٦٢٢.

(3) امْتَشَّها: ذهَبَ بها كلها

(4) أدَقَّ: تتبَّعَ الدقيقَ مِنَ الْأمور. انظر: المعجم الوسيط: ٢٩١.

(5) زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق الحُصري، فصَّله وضبطه وشرحه: د. زكي مبارك، اعتنى به: رضوان مامو، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ج ٢/ ص ٥٦٦ – ٥٦٧.

إنَّ أخاك الحقَّ مَن يَسْعَى مَعَكْ ومَـنْ يَـضُرُّ نَفْسَه لِيَنْفَعَكْ
ومَنْ إذا صَرْفُ زمان صَدَعَكْ بدَّد شَمْلَ نَفْسِهِ لِيجمَعَكْ

في صفة البيت

وبعد قضاء عدة ساعات بمعيَّة صاحبِنا في التجوُّل بين ساحات الحدائق التابعة لبيت الحكمة، قرَّرنا الانطلاق في دخول هذا البيت العريق الذي ظهر لنا لأول وهلة داراً قَوْراء[1] تتوسَّطها ساحةٌ كبيرة بها بِرْكَةٌ مستديرة عليها نوافير يتدفقُ منها الماء، فيذهب صُعُداً كأنَّه عمودٌ مِنَ البلَّور ثم يتثنَّى ويتكسَّر ويهبط كأنَّه الألماس، له بريقٌ يخطف الأبصار، صنعةً ما حسبتُ أنْ يكونَ مثلها إلا في الجِنَان.

وخلال محاولتي لوصف هذا البيت العامر وصفاً تحرَّيتُ فيه الدقة؛ وجدتُ أنَّه يتكوَّن من ساحةٍ تُحيط بها أروقة من طابقين على الجوانب الأربعة، تتقدَّمها سقيفة على صفٍّ من الأعمدة على غِرار تخطيط المدارس الإسلامية المعروفة في ذلك الوقت، ويتوسَّط كل جانب من الجوانب الأربعة للساحة إيوانٌ يعلوه قبو نصف اسطواني، يرتفعُ إلى ٢٥ ذراعاً (١٤ متراً)، أمَّا الإيوان الرئيسي المُلاصِق للجدار القبلي للمسجد فيُؤدي إلى رواقٍ تعلوه قبَّة أعلاها رواقٌ آخر يبلغ ارتفاع القبة التي تعلوه عن سطح الأرض ٨٠ ذراعاً

(1) وَاسِعَة. انظر: المعجم الوسيط: ٧٦٥.

(٤٤,٨ متراً)، ويرتقع فيه الرُّواق الأعلى بمقدار ٥٠ ذراعاً (٢٨ متراً)، ويعلوه تمثالُ فارسٍ يُمسك برُمحٍ يدورُ مع الريح، وهو يُشبه ما كان موجوداً أعلى قبَّة قصر وَاسِط[1].

كانت شخوصُ الداخلين والخارجين تنعكسُ على صفحة البِركَة المائية المستطيلة وسطَ البيت، فالممرَّات الأربعة المحيطة بالبِركَة لا تخلو من العلماء والكُتَّاب الغَادِين والرَّائِحين، وعلى أطراف هذه البِركَة تنتصبُ شجيرات البرتقال المصفوفةُ بعناية، مما يجعل رائحته الطرية الممتزجة بالريحان والغبار تتلقى الدَّاخل، وكان يجلس في كل زاويةٍ من زوايا البِركَة، أربعة رجالٍ بأيديهم كتبٌ وأقلامٌ وقراطيس، كان أحدهم يقرأ نصًّا بلغةٍ غريبة وبصوتٍ عال، فيما يندفعُ الآخر في كتابة ذلك النص باللغة العربية، أمَّا الآخران فيُراجعان ما يكتبه الثاني[2].

أخذنا في السير على حافة هذه البِركَة، فتراءت لنا على الطرف الآخر جماعةٌ من التراجمة فيهم حُنين بن إسحاق والحَجَّاج بن مَطَر، وكانوا في طريقهم إلى رواق الترجمة الواقع في الطابق العلوي من

(1) أوردتْ ذلك الوصف د. بهجه علي محمد البياتي عن دراسة د. محمود أحمد درويش: أصول التخطيط المعماري للمدارس الإسلامية في ضوء بيت الحكمة بقصر الذهب ببغداد، بغداد ٢٠٠١م. انظر: بيت الحكمة البغدادي وأثره العلمي: ٣٧.

(2) رواية «الحَدَقي»: ٣٠٩ – ٣١٠.

البيت، فآثرنا الانتظار حتى بلوغ هذا الرواق للتعرُّفِ عليهم عن كَثَب.

دَلَفنا بتُؤدةٍ إلى ساحة البيت الذي كان واسعَ المدخَل، كثيرَ الحُجَر، فكان أبرزَ ما أثارَ دهشتنا أنَّنا لا نكاد نرفع أعيننا إلا وتقعُ على حكمةٍ قوليَّة أو رمزيَّة، وأولُ ما رأيناه مِن ذلك: آيَة، وحِكْمَة، ونَقْش!

أمَّا الآيَة: فهي قولهُ تعالَى في مُحكَم التنزيل:

﴿يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أوتِيَ خَيرًا كَثيرًا﴾[1]

وأمَّا الحِكمَة: فهي التي تُنسَب إلى سُفيَان بن عُيَينَة رحمه الله:

«إنَّ أفضَلَ ما أُعْطِيَ العَبْدُ في الدُّنيا الحِكْمَة، وفِي الآخِرَةِ الرَّحْمَة»[2]

وأمَّا النَّقش: فكانَ لناقةٍ عظيمةٍ تحملُ متاعاً؛ وهي التي يسمِّيها العربُ بـ **«الرَّاحِلَة»**، وهي البعيرُ الكامل الأوصاف، الحَسَن المنظر، القوي على الأحمالِ والأسفار.

فتعجبنا لذلك غايةَ العجب وسألنا صاحبنا عن ذلك النقش البديع؛ فكان جوابه أنَّهم كانوا يُشبِّهونَ الحَكِيمَ في الناس بالرَّاحِلَةِ

(1) سورة البقرة: ٢٦٩.

(2) المجالسة وجواهر العلم، أبي بكر أحمد بن مروان الدَّينوري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٤٥٤.

في الإبل؛ فكلاهما عزيزُ الوجود، وفي ذلك يقولُ النبيُّ ﷺ: «**إنَّما النَّاسُ كالإبِلِ المِئَةِ، لا تَكادُ تَجِدُ فيها راحِلَةً**»[1].

وهنا علَّق صديقي بأنَّ هذا الحديث يمثِّل قاعدةً من القواعد النبوية المحكمَة؛ والمعنَى أنَّ المتميز ومَن يصلُح للقيادة والتأثير نادرٌ في الناس مع كثرة عددهم، ومع كثرة مَن يدَّعي ذلك أيضاً، وهذا كحالِ الإبلِ في كثرتِها، ومع ذلك فالنجائب والرَّواحِل فيهن قلائل، وفي ذلك يقولُ القائل:

وَلَمْ أَرَ أمثالَ الرِّجَال تَفَاوَتَتْ لَدَى المَجْدِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِد[2]

وهنا عقَّب صاحبُنا على ما قاله صديقي؛ بأنَّ هذا الحديث النبوي الشريف يشتملُ على حِكمَتَين؛ الأولى أنَّه خبرٌ صادق، والثانية أنَّه إرشادٌ نافع:

أمَّا الخَبَر: فإنَّه ﷺ أخبرَ أنَّ النص شاملٌ لأكثر الناس، وأنَّ الكامل – أو مقارب الكمال – فيهن قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب، لم تكد تجدها! وهكذا الناس كثير، فإذا أردت أن تنتخب

(1) صحيح الإمام البخاري، رقم الحديث: ٦٤٩٨.

(2) قواعد نبوية: خمسون قاعدة في العلم والأخلاق والسلوك، أ.د. عمر بن عبدالله بن محمد المقبل، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ١٠٧ – ١١٠.

منهم مَن يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو الوظائف المهمَّة، لم تكد تجد مَن يقوم بتلك الوظيفة قياماً صالحاً، وهذا هو الواقع؛ فإنَّ الإنسان ظلومٌ جهول، والظلم والجهل سببٌ للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل.

وأمَّا الإرشاد: فإنَّ مضمون هذا الخبر إرشادٌ منه ﷺ إلى أنَّه ينبغي لمجموع الأمَّة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمَّات، والأمور الكليَّة العامة النفع[1].

فكان هذا النقشُ البديع عظيمَ الدلالَة على مقصوده ﷺ من قلَّة الحكماء في الناس، كَقِلَّة الرواحِل في الإبل، وقد أرشدَ اللهُ تعالى إلى هذا المعنى في قوله: ﴿**فَلَولا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مِنهُم طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا فِي الدّينِ وَلِيُنذِروا قَومَهُم إِذا رَجَعوا إِلَيهِم**﴾[2].

الرَّايات العبَّاسية

تقدَّم صاحبُنا الرحَّالة في مسيره بنا نحو الإيوان الرئيسي المُلاصِق للجدار القبلي للمسجد، وإذا برايات سُود ومِن خلفها راياتٍ خُضر بالية تنتصبُ في مقابل الزائر كأنَّها تقدِّم له التحية!.

---

(1) بهجة قلوب الأبرار وقرَّة عيون الأخيار، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مركز تفكُّر للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص ٢٧٧ – ٢٧٨.

(2) سورة التوبة: ١٢٢.

وقد انقضى عجبُنا مِن أمرِ هذه الرايات عندما أخبَرَ صاحبُنا أنَّها تمثِّل شعار الدولة العباسية، وقد سنَّها القائد **أبو مُسلِم الخُرَاساني** (ت: ١٣٧هـ) القائم بإنشاء الدولة العباسية، وهازم جيوش الدولة الأموية، فقد «كان مِن أكبر الملوك في الإسلام، وكان ذا شأنٍ ونبأٍ غريب مِن رجلٍ يذهب على حمارٍ بإكافٍ من الشام حتى يدخل خُرَاسَان، ثمَّ يملِك خُرَاسَان بعد تسعة أعوام، ويعود بكتائب أمثالِ الجبال، ويَقلِبُ دولة، ويُقيم دولةٍ أخرى»[1]، وكان مِن بليغِ حِكمَة هذا القائد أنْ قالَ يوماً عن نفسه: «ارتديتُ الصبر، وآثرت الكتمان، وحالفتُ الأحزان والأشجان، وسامحتُ المقادير والأحكام، حتى بلغتُ غاية همَّتي، وأدركتُ نهاية بُغيتي»[2].

ثمَّ استطردَ صاحبُنا حديثه بأنَّ أوَّلَ مَن قامَ بالدعوة العباسية هو: محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ابن عبدالمطَّلب، الهاشمي القرشي (ت: ١٢٥هـ)، وهو والد السَّفَّاح والمنصور، وقد وَلِيَ إمامة الهاشميين سِراً في أواخر أيام الدولة الأموية، بعد سنة ١٢٠هـ، وكان مُقامه بأرض الشراة، بين الشام والمدينة[3]. وقد آثرَ العباسيون هذا

(1) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، د. محمد موسى الشرَّيف، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص ٦٣٤.

(2) العباسيون الأقوياء: ١٢٣.

(3) الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خيرالدِّين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م، ج ٦/ ص ٢٧١.

اللون الأسود شعاراً لهم؛ حُزناً على شهدائهم من بني هاشم، ونعياً على بني أميَّة في قتلهم، ولذلك سُمُّوا المسودَّة، وكان المأمون قد اتَّخذ رايةً خضراء عند مقدمه إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ، إلا أنَّه عَدَلَ عن ذلك بعد ٢٩ ليلة، وذلك بطلبٍ من طاهر بن الحسين الذي أشار عليه بضرورة العودة إلى اللون الأسود، شعار آباءه وأجداده[1].

وبذلك زال عجبي من رؤية تلك الرايات الخُضر البالية منصوبةً في الخلف، وقد أثارَ دهشتي جودة الأقمشة والأصباغ المستخدمة في صناعة مثل هذه الرايات التي تعود إلى بدايات القرن الثالث الهجري، فعلمتُ بأنَّها كانت تُنسج من مادة الكتَّان، وكانت الأصباغ الطبيعية المختلفة تُستعمل في تلوينها؛ كصبغة الزعفران وشجرة الورس ومادة الجراد، وفي النهاية يُضاف الشَّب أو قشور الرمان أو عصير الليمون أو التمر الهندي لتثبيت الأصباغ والحفاظ عليها.

ثمَّ تابعنا المسير جهة الجدار القبلي للمسجد، وإذا على أطرافهِ دِكَكٌ ومَصَاطِب مفروشةٌ بالنمارق المصفوفة[2] والمُتَّكَآت، فبدا لنا أنَّ مثل هذه الدِّكَك قد أُعدَّت لاستقبال الزوَّار من ذوي المكانة العلمية الرفيعة، فجلسنا على إحدى أطراف هذه المَصَاطِب في

(1) البداية والنهاية: ١١/ ١٢.

(2) من قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصفوفَةٌ﴾ (الغاشية: ١٥)، والنمارق هي الوسائد.

انتظارِ صاحبنا الذي ذهبَ لمقابلة القائم بأمر بيت الحِكمَة، وهو الذي سنكونُ بصحبته طوال باقي جولتنا بين أروقة هذا البيت.

إلا أنَّه قد جذبنا رؤية خريطةٍ بدائية كانت معلَّقةً في مقابل هذه الجلسة، منقوشٌ أعلاها اسمُ الخليفة المأمون، فهو الذي أمرَ برسمها على يدِ سبعين من العلماء، حيث قسَّموا العالَم فيها إلى سبعة أقاليم، كما استخدموا فيها الأصباغ والألوان لتمثيل مختلف الظواهر[1].

(1) كانت هذه الخريطة في حُكم المفقود، إلى أن أعادَ اكتشافها وتجميعها العالِم التركي د. فؤَاد سَزكِين (ت: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م) سنة ١٩٨٤م، وذلك في مكتبة قصر طوب قابي بإسطنبول، ضمن مخطوطة كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م). انظر: الريادة الجغرافية للحضارة الإسلامية ضمن مقاربة «سُوزانه بيليغ»، أحمد حامد قشطة، الموقع الإلكتروني لـ «مركز نماء للبحوث والدراسات»، ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٣م.

رُوَاق القَيِّم

بعد بُرهَةٍ يسيرةٍ من الانتظار، أشار لنا صاحبُنا بالتقدُّم صوبَ رُواق القيِّم، فسلكنا الطريق أسفل الإيوان الرئيسي المُلاصق لذلك الجدار القبلي، وإذا بتلك القبَّة التي نُصبت أعلى الإيوان قد نُقشت ببعض الحِكَم العربية والفارسية واليونانية، كلٌّ بلغته، وهذا من مظاهر التنوُّع الثقافي الذي حَظِيَ به بيتُ الحكمة البغدادي، ثمَّ كان دخولنا لذلك الرُّواق المهيب إيذاناً بالبداية الفعلية لجولتنا في هذه الرِّحاب.

استقبلنا القائم بأمر بيت الحكمة، وهو ما يُطلقونَ عليه «**القَيِّم**»، وقَيِّمُ القومِ هو مَن يقُومُ بشأنِهم ويَسُوسُ أمرهُم[1]، ولأنَّه مِن طبقةِ كِبارِ القَوم، فكانَ لِبَاسُهُ يشتملُ على سِروَالٍ فِضْفَاض، وقَمِيص عليه قَبَاء[2]، ودُرَّاعَة[3]، وعلى رأسِه قَلَنْسُوَة[4].

---

(1) المعجم الوسيط: ٧٦٨.

(2) القَبَاء: ثوبٌ يُلبسُ فوق القَمِيص. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(3) الدُّرَّاعَة: جُبَّةٌ مِن صُوفٍ، مشقوقةُ المُقدَّم. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(4) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ١١٦.

أخذَ القائم في إعطائنا نُبذةً يسيرة عن هذا القَيِّم الفارسيِّ الأصل؛ فاسمه: سَهْل بن هَارُون بن رَاهيون، أبو عمرو الدستميساني[1]، كان معروفاً في البصرة بالحِكمَة والفصاحة والشِّعر، حتى لُقِّب بـ «بزرجمهر الإسلام»[2]، كان متحقّقاً بخدمة المأمون، كان له اقتدارٌ ملحوظٌ في النظم والنثر، وقد أُعجِب المأمون ببراعته وعقله، وارتفعت مكانته عنده حتى أحلَّه محل يحيى بن خالد البرمكي صاحب دواوينه، ثم جعله على بيت الحِكمَة[3].

كان الرُّواقُ واسعاً بما يكفي لاستقبال عددٍ كبير من الزوَّار في وقتٍ واحد، وكان مليئاً بالشموع المعلَّقة على أركانه الأربعة، ويتوسَّطها قنديلٌ كبير، وكانت أرضيَّته مغطاة بسِجَّادٍ أحمرَ فارسي، وفي أطرافه بُسِطَت الحُصُر المصنوعة من جريد النخل وعليها فُرُشٌ ناعمة.

أشارَ لنا القَيِّم أن نأخذ مكاناً على إحدى هذه الفُرُش الوثيرة، ثم بادَرَ بتقديم كِيزان الماء البارد فارتوينا بعد ظمأٍ طويل لم نشعر به إلا اللحظة، وهنا شدَّ انتباهَ صاحبي أنَّ هذه الكيزان الفضيَّة منقوشٌ

(1) كانت وفاته سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م.

(2) نسبةً إلى بزرجمهر بن البختكان، الذي كان وزيراً لكِسْرَى الأول المعروف بـ «أَنُوشِرْوَانَ العَادِل» (٥٠١ - ٥٧٩م)، وكان رجلاً حكيماً عالِماً، وقد ذُكر اسمه في بعض الأعمال الهامة في الأدب الفارسي، وعلى الأخص في ملحمة «الشاهنامه» التي تُعرف بأنَّها أعظم أثر أدبي فارسي في جميع العصور.

(3) الأعلام: ٣/ ١٤٣، بيت الحكمة البغدادي وأثره العلمي: ٥٠.

عليها عِبارَة «**الوفاءُ عزيزٌ**»، وهي الكلمة التي كانت نقش خاتم الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجرَّاح رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

كما لفَتَ انتباهي تلك المِزْوَلَة التي عُلِّقت في أحد أطراف الرُّواق، فأشار صاحبُنا إلى أنَّها مِن عمل بعض صُنَّاع بغداد المَهَرَة، وكانت كبيرةَ الحجم، بديعةَ الصُّنع، تدلُّ الناظِرَ إليها على الأوقاتِ في ليلٍ ونهار، وقد نُقِشَ عليها عبارة: «**هذا الوقت سوفَ يمضي**»، وهي مِن كلام وزيرٍ هندي طلبَ منه الملك كتابةَ جُملةٍ حين ينظرُ إليها وهو سعيد يحزن، وحين ينظر إليها وهو حزين يسعَد!.

إلا أنَّ أبرز ما يشدُّ الزائر إلى تلك الديار العامرة؛ ذلك الكرم الذي يستميلونَ به أفئدة الناس، وهو من آثار السَّادة البرامكة الذين كانوا مَضرِب المثل في الكرم والسماحَة، فقد وجدناهم يُضيِّفون نُزلاءهم ضيافةً يوجبونها على أنفسهم، ولو كان النزلاء قَتَلَة آبائهم، وربما توسَّعوا في أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وغُصَّة عند ارتحاله، كما يقول عاصم بن وائل:

وإنَّا لنَقْرِي الضيفَ قبلَ نزوله ونُشبعه بالبِشْر من وجه ضاحك

ولقد كنتُ أسمعُ عن كرمهم أحاديثَ لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار، فلمَّا نزلتُ بجوارهم تحقَّقتُها بالمشاهدة والاختبار، ووجدتُ أنَّ كلهم كريم، حتى لقد يكون السخاءُ تسعةً فيهم

وواحداً في الناس، وفي ذلك الوقت أخبرنا بعض الغلمان أنَّهم بصددِ تجهيز مبيتٍ لنا لثلاثة أيام.

وإذا بغُلامٍ روميٍّ يرتدي قميصاً أحمر، مُعتجراً عمامةً بيضاء، فأخذَ بحملِ أمتعتنا إلى دار الضيافة التابعة للبيت. وإكراماً منه لزيارتنا الأولى، فقد ألبسنا القَيِّمُ قميصَينِ مُزَركَشَين، وإزارَينِ سِندِيَّينِ مُلَوَّنَين من ألبسه الفُرس التي كانت تقدَّم كهدية لزوَّار البيت من أهل الأمصار البعيدة، ثمَّ وضع علينا فوق ذلك دُرَّاعَتَين عجيبتين تفوحُ منهما رائحة المِسك، وعندئذٍ بَـدَتْ علينا آثار «التَّبَغدُد»!.

الجَاحِظ والنظَّام

أطلقنا بصرنا في بعض نواحي الرُّواق، فإذا برجُلين عظيمين يجلسانِ على شيءٍ مِن تلك الفُرُش، وقد لفَّا عمامتان مكوَّرتان على رأسيهما، وحينئذٍ أشارَ صاحبُنا أنَّهما زينةُ أهل الأدب: الجَاحِظ والنظَّام، وكنتُ على علمٍ بمكانهما من أئمة البيان في ذلك العصر، فتقدَّمنا للسَّلامِ عليهما والنهلِ مِن معينهما الذي لا ينضب، وكان الجاحظُ يتحدَّث بصوته الندي، ومخارجه الفخمة تزدادُ أناقةً كلما تكشَّفت أمامه حجَّةٌ أمام صديقه النظَّام، الذي كان ينظرُ إليه بانتباهٍ شديد، وكان إذا تحدَّث بين القوم أعطى كلَّ رجلٍ في مجلسه نصيبه من حديثه.

أخذَ الجاحظُ في الحديث عن الخليفة المهديِّ وعن جميل عنايته في تعظيمِ العِلْم وتكريم العلماء، فهو يتخذُ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياماً معلومةً في السنة، يعرضونَ فيها بضاعتهم من عِلمٍ أو فنٍّ أو أدبٍ أو صناعة؛ حتى يحصل بينهم التنافس، ويُصدروا ما عندهم من النفائس، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوعٌ عليه من الكرم[1]، فعلمنا أنَّ صنيع المهدي قد بقي أثره فيمن أتى بعده من خلفاء بني العبَّاس إلى عهد المأمون.

وقد أشارَ صاحبُنا إلى أنَّ الجاحظ كان شديد العناية بسَهْل بن هَارُون؛ حتى وصفه بأنَّه مِن الخُطباء الشُّعراء الذين جمعوا الشِّعر والخُطَب والرسائل الطوال والقِصار، والكُتُب الكِبار، وأخباره مع الخلفاء والأمراء كثيرة، كما عدَّد بعضاً من تصانيفه مثل كتاب «ثعلة وعفراء» الذي ألَّفه للمأمون على نسق «كليلة ودمنة»، وكتاب «الإخوان» و«المسائل»، و«المخزومي والهُذَلِيَّة» و«ديوان رسائل» و«سحرة - أو شجرة - العقل» و«تدبير الملك والسياسة» و«الرياض» و«الوامق والعذراء» و«النمر والثعلب»[2].

وقد كان الجَاحِظُ يُملي رسالةً في «**الحنين إلى الأوطان**» على بعض أتباعه من أهل الأدب؛ سمعته يُملي عليهم قوله: «ولولا

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ٧٠ - ٧١.

(2) الأعلام: ٣/ ١٤٣.

تقييدُ العلماء خواطرَهم على الدهر، ونقرهم آثارَ الأوائل في الصخر؛ لبطلَ أوَّلُ العِلْم وضاعَ آخره، ولذلك قيل: لا يزال الناسُ بخيرٍ ما بقيَ الأوَّلُ يتعلَّم منه الآخر»[1].

حِكمَة أمير الحَج

وفي هذه الأثناء، قَدِمَ علينا رجلٌ ذو مهابةٍ في ثيابٍ مُزركشة، فأخَذَ صاحبُنا في تعريفنا بأنَّه الأمير المولَّى على الحُجَّاج، وقد قصده أحد الجُلاس بسؤالٍ عمَّا يجب عليه تجاه الحجيج في سفرهم قاصدينَ بيتَ الله الحرام بمكَّة المكرمة، فأجابَ بأنَّ له في إمارته النظرَ في أمورٍ عشرة:

* أنْ يجمَعَ الحُجَّاج في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرَّقوا فيخاف عليهم التواني.

* أنْ يرتِّبهم في المسير ليعرفَ كلُّ منزله ويألَفَ مكانه إذا أناخوا في بلد.

* أنْ يرفق بهم في المسير حتى لا يعجزَ عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطِعهم.

* أنْ يسلك بهم أوضحَ الطرق وأخصبها، ويتجافى أوعرها وأجدبها.

---

(1) الحنين إلى الأوطان، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٥ - ٦.

* أنْ يرتادَ لهم المياه إذا قلَّتْ، والمراعي إذا انقطعت.

* أنْ يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا.

* أن يمنعَ عنهم مَن يصدَّهم عن المسير بجهادٍ لا بمال.

* أنْ يُصلِح بين المتشاجرين؛ لأنَّهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم.

* أنْ يُؤدِّب خائنهم ويُلزِمَ الناس آدابهم.

* أنْ يُراعِيَ فواتَ الوقت فلا يُخشى عليهم ضيقُه؛ لأنَّهم إذا لم يصلوا عَرَفَة في يوم عَرَفَة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتَهم الحج[1].

نقش الفيل وخُطبة المنصور

كانَ أكثر ما يشدُّ الداخلَ إلى هذا الرُّواق تلك «البلاغة البصرية» التي زيَّنَت جدرانه الحجرية العتيقة؛ فجمالُ الحروف المحفورة بالخطِّ الفارسي يكادُ يَنطِقُ بتلك البلاغة، ويشهد لذلك قولُ صاحبِنا: إذا كانت البلاغة مطابقةُ المقال لمقتضى الحال؛ فإنَّ ما نحن فيه من قبيل البلاغة التي تدفعُ العينَ دَفعاً إلى الافتتان بما ترى، فالبلاغةُ اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة.

(1) أدب الدين والدنيا، أَبِي الحَسَن المـاوَرْدِي، دار المنهاج، جدَّة، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص ١٨٧.

وهذا بخلاف بعض النقوش التي تبدو من شدة اتقانها أنَّها حقيقية؛ مثل نقش ذلك الفيل الذي استرسلتْ عليه الفضة في الحلية الثقيلة، وعليه هودجٌ منزَّل بالأصدافِ اللامعَة، وعلى القبَّة المثبَّتة فوق ذلك الهودَج أستارٌ من الديباج يتخلَّلها رسومٌ من الذهب، وقد علمنا أنَّه كان للخليفة المنصور في موكبه للحج، ولم يسبق أحدٌ من ملوك العرب إلى اتخاذ الفِيَلَة في المواكب قبل المنصور، وقد كُتب تحت هذا النقش «**خُطبة المنصور في عَرَفَة**»، وهذا نصُّها[1]:

«أيها الناس؛ إنَّما أنا سلطانُ الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فَيْئِه، أقسِّمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاءَ أنْ يفتحني لإعطائكم، وإذا شاءَ أنْ يقفلني عليه أقفلني، فارغبوا إلى الله.

أيها الناس؛ وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهبَ لكم فيه من فضله ما أعلَمَكم به في كتابه؛ إذ يقول: ﴿**اليَومَ أَكمَلتُ لَكُم دينَكُم وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دينًا**﴾: أن يُوفقني للصواب، ويُسددني للرشاد، ويُلهمني الرأفةَ بكم والإحسانَ إليكم، ويفتحني لإعطائكم وقَسْم أرزاقكم بالعدل؛ فإنَّه سميعٌ مجيب».

كما يُلاحظ أنَّ هذه المقولات الحِكمية التي شكَّلت منطق هذه

(1) تاريخ الخلفاء: ٤٢٨.

البلاغة، قد أخذَ بعضها برقابِ بعض؛ فكلُّ حكمةٍ تكملُ سابقتها حتى توصلك إلى المعنى المُراد في نهاية هذه السلسلة البلاغية، وفيه دلالةً على حكمة كاتبها ومنتقيها؛ فهو لم يبخل على زائر بيت الحكمة من إشباعه بصرياً ووجدانياً.

ويقعُ هذا الرُّوَاق في ساحةِ البهو الرئيسي لبيتِ الحِكمَة، وقد كُتِبَ على بابِه:

«قلبٌ ليسَ فيهِ حِكْمَة كَبَيْتٍ خَرِب»[1]

انطَلَقَ بنا صاحبُنا للقاءِ أحد الأدباء الفُضَلاء مِن ذَوِي المكانة الرفيعة، وقد سأله سؤالاً أرادَ به إخراج ما في جُعبته مِن جميل الحِكمَة: **ما بَلَغَ مِن سُرورِكَ بأدبِكَ وكُتُبك؟**

فأخَذَ يقول: هي إنْ خَلَوْتُ لذَّتِي، وإنْ اهتممتُ سَلْوَتِي، وإن قلتَ: إنَّ زَهْرَ البستان، ونَوْر الجِنَان، يَجْلُوان الأبصار، ويُمْتِعَان بحُسنهما الألحاظ؛ فإنَّ بستانَ الكُتُبِ يَجْلُو العقل، ويَشْحَذُ الذِّهْن، ويُحيي القلب، ويقوِّي القريحَة، ويُعِينُ الطبيعة، ويَبْعَثُ نتائجَ العقول، ويستثِيرُ دفائنَ القلوب، ويُمتِعُ في الخَلْوَة، ويُؤْنِسُ في الوَحْشَة، ويُضْحِكُ بنوادره، ويَسُرُّ بغرائبه، ويُفيدُ ولا يَستفيد،

(1) أشرنا من قبل إلى ضعف هذا الحديث. انظر: ضعيف الجامع الصغير للألباني، رقم الحديث: ٤١٠٧.

ويُعْطي ولا يأخُذ، وتَصِلُ لذَّته إلى القلب، من غيرِ سآمةٍ تُدْرِكُك، ولا مشقَّةٍ تَعْرِض لك[1].

فكانَ هذا البيان الأدبي الرفيع دالاً على المكانة الرفيعة التي وصلَ إليها هؤلاء القوم، فكانَ لزاماً علينا أن نتدارسَ مثل هذه النصوص الأدبية، ونعتني بِهَا أشدَّ العناية!.

خُطبة المأمون

وفي مواجهة مقعد القَيِّم، وجدنا لوحةً عظيمة قد نُقِشَ أعلاها: «**خُطْبَةُ المأمُون شَرَّفَهُ الله**»، وإذا بصاحبِنا يُشير إلى أنَّها إحدَى خُطَب الجمعة التي ألقاها الخليفة، دوَّنها أحد كُتَّاب البلاط العبَّاسي، حيث كان مِن عادتهم أن يُدوِّنوا خُطَبِ الخلفاء ويُعلِّقونَها في الدواوينِ الرسميَّة للدولة.

وقد أخذَ أحدُ غِلمَان القَيِّم في قراءة تلك الخُطْبَة التي رواها يَحْيَى بن أَكْثَم التَّميمي (ت: ٢٤٢هـ)، الذي يتَّصل نسبه بأَكْثَم بن صَيفي حكيم العرب، وكان يَحْيَى مِن رجال المأمون الثقات[2].

قالَ المأمون بعد الثناء على الله عزَّ وجلَّ والصلاة على نبيه ﷺ: «أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله وحدَه، والعمل لِمَا عنده، والتَّنَجُّز

(1) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ١٨٥.

(2) الأعلام: ٨/ ١٣٨.

لوعدِه، والخوف لوعيدِه؛ فإنَّه لا يسلَم إلا مَن اتَّقاهُ ورَجاه، وعمل له وأرضاه؛ فاتَّقوا اللهَ عبادَ الله! وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزولُ عنكم، وترحلوا؛ فقد جدَّ بكم، واستعِدُّوا للموت؛ فقد أظلَّكم، وكونوا قوماً صِيْحَ بهم؛ فانتبَهوا، واعلموا أنَّ الدنيا ليست لكم بدار؛ فاستبدلوا؛ فإنَّ الله لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سُدىً، وما بين أحدكم وبين الجنَّة أو النار إلا الموت أن ينزلَ به؛ فإنَّ غاية ينقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرةٌ بنقص المدَّة، وإنَّ غائباً يحُدُوهُ الجديدان - الليل والنهار - لحريٌّ بسُرْعَةِ الأوبَة، وإنَّ قادماً يحل بالفوز أو الشَّقوة لمستحقٌّ لأفضلِ العدة؛ فاتقى عبدٌ ربه ونصح نفسه وقدَّم توبته وغلب شهوته؛ فإنَّ أجله مستور عنه، وأمله خادعٌ له، والشيطان موكَّلٌ به، يُزَيِّنُ له المعصية ليركبها، ويمنِّيهِ التوبةَ ليسوِّفها، حتى تهجم عليه منيَّته، أغفل ما يكون عنها؛ فيا لها حسْرةً على ذي غفلة أن يكونَ عمرُه عليه حُجَّة، أو تؤدِّيه أيامه إلى شقوة! فنسأل اللهَ أن يجعلنا وإيَّاكم مِمَّن لا تبطره نعمته، ولا تقصِّر به عن طاعته، ولا تحل به بعد الموت حسرة؛ إنَّه سميعُ الدعاء، وبيده الخير، وإنَّه فعَّالٌ لما يريد»[1].

(1) المجالسة وجواهر العلم: ٥٠٢.

بصحبة القيِّم والرحَّالة

بعدما فرغ القَيِّم من بعض مشاغله، انطلق بنا في جولةٍ شملت كافة أرجاء البيت، وقد أنابَ مكانه كلاً من سعيد بن هارون وسَلم الفارسيين، وهما وكلاءه ونوَّابه في القيام بشؤون البيت.

كان أولَ ما وقعتْ عليه أعيننا تلك الحِكمَة التي نُقِشَت فوق الجدار الداخلي للرواق، فكانت مِن خيرِ ما راقَ لنا من أطايب الحِكمَة: «**معالجةُ الموجود خيرٌ من انتظارِ المفقود**»[1].

وقد استهلَّ صديقي هذه الجولة بالسؤال عن مدى ارتباط الحِكمَة عند الإنسان بالسِّن، وحينئذٍ أظهرَ القيِّمُ الاعتراضَ على هذا الزعم؛ فعنده أنَّ الحِكمَةَ لا ترتبطُ بالسنِّ مطلقاً، ثمَّ استشهدَ بما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «**إنَّ الحِكمَةَ ليستْ عَن كِبَرِ السِّن، ولكنه عَطاءُ الله يُعطيه مَن يشاء، فإياكَ ودناءة الأُمُور ومَدَاقِّ الأخلاق**»[2].

ثمَّ ضَرَبَ لنا مَثَلاً بالإمام **الجُنَيد البغدادي**[3] الذي كانَ ممَّن نطقَ بالحِكمَةِ صغيراً؛ فَعَن أبو سَهْلٍ الصُّعلوكِي: سمعتُ أبا مُحَمَّد

---

(1) نفس المصدر السابق: ٤٨٨.

(2) إسناده ضعيف. انظر: نفس المصدر السابق: ٣٥٧.

(3) كانت وفاته سنة ٢٩٨هـ.

المرتعش يقول: قالَ الجُنيد: كنتُ بين يدي السَّريِّ ألعبُ وأنا ابنُ سبع سنين، فتكلَّموا في الشُّكر، فقال: يا غلام! ما الشُّكر؟ قلتُ: **أنْ لا يُعصَى اللهُ بِنِعَمِهِ**، فقال: أَخشَى أن يكونَ حظّك مِنَ الله لِسَانُك. قال الجُنيد: فلا أزالُ أبكي على قوله! [1].

الرحلة في طلبِ الحِكمَة!

أخذَ القَيِّم يحدِّثنا في شأنِ مَن كانوا يرحلونَ قديماً في طلبِ الحِكمَة، كما هو الحال في شأن مَن يرحلونَ في طلبِ العلم، وفي ذلك يقول النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»[2]، كما أشارَ إلى أنَّ الرحلة أمرُها قديم؛ فقد ذكَرَ القرآن رحلة سيدنا موسى عليه السلام إلى الخَضِر ليتعلَّمَ منه علماً أعطاهُ اللهُ إياه، ولَقِيَ في ذلك السفرِ نصباً وتعباً وعنتاً، ورأى من عجائب أمر الله ما رأى، ولم يستنكف أن يذهب إلى حيث يجد ما ليس عنده من العلم لتعلَّمه،

وأضافَ بأنَّه قد جرتْ عادة الحُكَمَاء في كلِّ زمانٍ ومكان؛ أنَّهم يألفونَ الترحالَ في البلادِ طلباً للأمثال والحِكْم والنوادر، وغير ذلك من تشتهيهِ نفوسهم من جوامعِ الكَلِم، فيكونُ ذلك زاداً لهم يجتذبُ إليهم الناس بالحديث عنه، وفي الناسِ حبُّ التطلُّع لأخبارِ

(1) نزهة الفضلاء: ١١٥١.

(2) صحيح الإمام مسلم، رقم الحديث: ٢٦٩٩.

غيرهم، ومعرفة ما لم يألفوهُ من أحوالهم، لذلك احتلَّ الحكماء مراكزَ الصَّدارة في المجالس واجتذبوا الناسَ إليهم بما يحكُونَ من أنباءِ رحلاتهم، ومِن لطائفِ الحِكَم وطرائفِ النُّكَت، وفي هذا قالَ بعضُ الشعراء[1]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَقْلَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ ولكنْ تَمَامُ العَقْلِ طُولُ التَّجَارِبِ

ثمَّ قصَّ علينا القَيِّمُ خَبَرَ ذلك الرجل الذي تَبعَ حَكِيماً سبعَ مئة فرسَخ[2] في كلمات!..

فقالَ له: إنِّي أتيتُك لتُعلِّمني مِمَّا علَّمكَ الله..

قالَ له الحكيم: هاتِ..

قال الرجل: فأخبرني عن السَّماء، ما أثقلَ منها؟ وعن الأرض، ما أوسعَ منها؟ وعن البحر، ما أغنَى منه؟ وعن الحَجَر، ما أقسَى منه؟ وعن النار ما أحَرَّ منها؟ وعن الزَّمْهَرير، ما أبردَ منه؟

فقال الحكيم: البُهتان على البريء أثقل من السماوات السَّبع، والحقُّ أوسعُ من الأرض، وقلبُ القانع أغنَى من البحر، وقلبُ الكافر أقسَى من الحَجَر، وشحُّ الحريص أحرُّ من النار، والطاعةُ

(1) أدب الدين والدنيا: ٤٦.

(2) الفرسخ = ٥٥٤٤ متراً.

أبردُ من الزَّمْهَرير![1].

وقد ذكَّرني كلامُ القَيِّم بشأن الرحلة في طلب الحِكمَة؛ بما قالهُ أحدُ المعاصرين: «لا شكَّ أنَّ الأسفارَ فوقَ ما تعطيه من مادةٍ وخبرَة؛ هي بطبيعتها تُفتِّق الذِّهن، وتُنمِّي المدارِك، وتُرهف الحِس، وتُعطي الفِكْر مادةً من الصُّورِ توسِّع تصوُّرَه، وتفتحُ له مسالكَ من الفروضِ العقلية والمسائلِ الواعية، وهي لهذا لازمةٌ للمُفكِّر الذي يريدُ أن يضعَ قضاياً كليةً للحوادثِ الجزئية، ولذلك كان أكثرُ الفلاسفةِ الذين أضافوا إلى آثارِ العقل الإنساني آثاراً؛ يضربونَ في الأرضِ ويسعَوْنَ في مناكبها»[2].

الحِكْمَة عندَ المأمون

شَرَعْنا في سؤالِ القَيِّم عن معنَى الحِكمَة التي قصدَها المأمون عند إنشائه لهذا البيت، فاستهلَّ كلامه بالحديث عن اتساع رُقعة الدولة العباسية وبخاصة في زمن الرشيد الذي كان كثيرَ الغزوِ والحَج، والذي قِيلَ في حقِّه[3]:

---

(1) المجالسة وجواهر العلم: ٤٧٠.

(2) من كلام الشيخ محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) في كتابه: «الشافعي: حياته وعصره.. آراؤه الفقهية»: ٤٣.

(3) من كلام أبو المعالي الكلابي، والطمرُّ: الفرس المستعد للوثب والعَدْو. انظر: تاريخ الخلفاء: ٤٥٦.

فمَن يَطلب لقاءَكَ أو يُرِده فبِالحَرَمين أو أقصَى الثُّغورِ
ففي أرضِ العدوِّ على طِمِرٍّ وفي أرضِ البريَّة فوقَ كُورِ

وكان الرشيدُ مُحِبًّا للعلمِ والعلماء، فعن أبي معاوية الضَّرير (ت: ١٩٥هـ) أنَّه قال: «أكلتُ مع الرشيد يوماً، ثمَّ صبَّ على يديَّ رجلٌ لا أعرفه[1]، ثمَّ قال الرشيد: تدري مَن يصبُّ عليك؟ قلتُ: لا، قال: أنا؛ **إجلالاً للعِلْم**»[2]..

فتعجبنا من صَنِيع الرشيد مع هذا الإمام الحافظ المحدِّث، وكيف كان تقدير هؤلاء الخلفاء وإجلالهم لأهل العلم، وليس أدلَّ على ذلك من أنَّنا نجد في مجالس الرشيد من العلماء والأدباء أفذاذ الدنيا كالأصمعي لسان العرب ونادرة الزمان في الحفظ وعلم اللُّغة، والكسائي، والمفضَّل الضبي[3].

وقد أخبرنا صاحبُنا الرحَّالة أنَّ الرشيدَ كان يحبُّ حديثه عن علوم الفرس وصنائعهم؛ لِما طبعَ الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوُّق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم، ولذلك كانت دولته تزدادُ خيراً وصلاحاً، وينعمُ فيها العِلم رَوحاً واستراحاً،

---

(1) لأنَّ أبا معاوية كان ضريراً، فقام الخليفة بصبِّ الماء عليه؛ إجلالًا لعلمه وهو لا يدري!!.

(2) تاريخ الخلفاء: ٤٥٨.

(3) العباسيون الأقوياء: ٤٥٨.

حتى إذا أقبلَ إليه العلماء من جميع الوجوه يَستمطرون غيث نداه حقَّق لهم جميلَ أملهم فيه، وبَسَطَ يده لإقطاعهم الضِّياع العامرة، وصلتهم بالهِبات الوافرة[1].

وقد وَرَّثَ الرشيدُ ذلك التعلُّق بالعِلم إلى ابنه المأمون؛ حيث حدَّثنا القَيِّم أنَّ الرشيد دخلَ يوماً على المأمون وهو يَنْظُرُ في كتابٍ..

فقال: ما هذا؟

قال: **كِتَابٌ يَشْحَذُ الفِكْرَة، ويُحْسِنُ العِشْرَة.**

فقال: الحمدُ لله الذي رَزَقَنِي مَنْ يرى بعَيْنِ قلبِه أكْثَرَ مِمَّا يرَى بعينِ جسمِه[2].

ثمَّ تابعَ القَيِّم حديثه بأنَّ هذه البيئة العلمية التي تميَّز بها عصر الرشيد؛ قد أفرزت مناخاً مناسباً لأنْ تصبحَ بغداد كعبةَ العلم والعلماء، فكانت مَحَطَّ رِحَالِهم. ومع وصول الخليفة المأمون إلى سُدَّةِ الحكم، أصبحت بغداد محطَّ أنظار الدنيا شرقاً وغرباً، فكان بيتُ الحِكمَة خيرَ تعبيرٍ عَمَّا وصلتْ إليه تلك الحالة العلمية الفذَّة في عاصمة الخلافة العباسية.

وبالعودة إلى سؤالنا، فقد أشارَ القَيِّم إلى أنَّ طبيعة الحِكمَة التي

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ١٥٦.

(2) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ١٨٥.

قصدها المأمون عند إنشائه لهذا البيت: هي «الفلسفة» وخاصة الفلسفة اليونانية[1]؛ فهي ذلك العلم الذي كان المأمونُ شغوفاً بنقله إلى بلاد العرب والمسلمين، وكان قد اتخذ جدَّه المنصور قدوةً في ذلك، فهو الذي بدأتْ في عهدِهِ عملية نقل العلوم الفلسفية إلى العربية.

ثم تابعَ القَيِّم حديثه، فأشارَ إلى أنَّ المأمون كان يجلسُ إلى الناس بعض أيام الأسبوع، فَمِن ذلك:

يوم الأحد: وكان يجلس فيه للمَظَالِمِ إلى الظهر.

يوم الثلاثاء: وفيه كان يعقد بعض المناظرات، ومِن بينها مناظرته لرجلٍ عليه ثيابٌ قد شمرها، ونعله في يده، فوقفَ على طرفٍ البساط وقال: السلام عليكم، فردَّ عليه المأمون، فقال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنتَ فيه؛ جلسته باجتماع الأمَّة أم بالمغالبة والقهر؟

قال: لا بهذا ولا بهذا؛ بل كان يتولى أمر المسلمين مَن عَقَدَ لي ولأخي، فلمَّا صار الأمر لي، علمتُ أنِّي محتاجٌ إلى اجتماع كلمة المسلمين في المشرق والمغرب على الرضا بي، فرأيتُ أنِّي متى خليت الأمر، اضطربَ حبل الإسلام، ومرج أمرهم، وتنازعوا، وبطل الجهاد والحج، وانقطعت السبل، فقمتُ حياطةً للمسلمين إلى أن

(1) بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية: ٢٧.

يجمعوا على رجلٍ يرضون به، فأُسلِّم إليه الأمر، فمتى اتفقوا على رجلٍ، خرجتُ له من الأمر.

فقال: السلام عليكم ورحمة الله، وذهب[1].

(1) تاريخ الخلفاء: ٥١١.

رُوَاق مجلس الحُكَمَاء

توجهنا صوبَ المحطة الثانية لنا داخل بيت الحكمة، والتي رافقَنا فيها القَيِّم والرحَّالة بين جنبات مجلس الحُكَمَاء، وقد قدَّم لنا هذا الرُّوَاق مادةً وفيرةً لكلِّ مَن يرغب في الفائدة، والتمتُّع بأطايب الحِكمَة؛ ولم يدَّخِر القَيِّمُ جُهداً في تعريفنا بأشهر الحِكَم والأمثال الواردَة على ألسنة هؤلاء الحُكَمَاء المنقوشة أسماؤهم على جدران الرُّوَاق يَمنَةً ويَسرَة.

لم يتحوَّل نظرُنا عن جدران المجلس لما راعَنا من حُسنه المفرط؛ فقد أُعجبنا به من الزينة التي يُكبرها الناظر، ويقفُ عندها وِقفة الذَّاهل الذي عليه عقدةٌ من السِّحر، وهو بين أساطين دقيقة، وقِباب رفيعة، ورَواشن[1] مخرَّمة، وخرجات مجُسَّمة بالجصِّ المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجولُ فيه الأفكار فتجِلُّه، وتميلُ إليه الأبصار فلا تَمَلُّه.

نُقشت هذه الأسماء وطُليت بماء الفِضَّة لتبدو لامعةً في ضوء

(1) رواشن: جمع: رَوْشن»/ «رَوْشان: الكُوَّة (من الفارسية). انظر: المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل: ٢٤٣.

الشَّمس الذي يتسرَّب عبر نوافذ الرُّواق، أو في ضوء القناديل التي تُضِيءُ ليلاً، وقد نُصِبَ مجلسُ الخليفة في وسطِ الرُّوَاق الذي أُعِدَّ للخطابةِ والمناظرة، وقد نُصِبَ تمثالٌ للكرة الأرضية فوق الطاولة المسامتة لكرسي الخليفة الذي كان مهتمًّا بهذا النشاط الخطابي، فقد كان هذا العصر بمثابة «عصر المناظرات الفقهية المثمرة»[1].

وقد كان مجلس الخليفة مفروشاً بالصوف الملوَّن، والطنافس[2] الخُضر، والتصاوير المعلَّقة على الجدران، والنحوتات الذهبية على شكل حيوانات مفترسة منصوبة في أطرافه على طاولات، وعن يَمِينِ هذا المجلس، نِصِبَ مجلسٌ آخر يعُودُ إلى مُتَولِّي ديوان الرَّسَائل للمأمون، واسمُهُ **أَحْمَد بن يُوسُف** (ت: ٢١٣هـ)، وكان كاتباً بليغاً، وقد حَكَى لنا القَيِّم أنَّه أهدَى إلى المأمون في يومِ مِهْرَجَانٍ هديةً قيمتها ألفُ ألفِ درهم!، وكَتَبَ[3]:

على العبد حقٌّ فَهُوَ لابُدَّ فاعلُهْ وإنْ عَظُمَ المَوْلَى وجَلَّتْ فضائلُهْ

أَلَم تَرَنا نُهْـدي إلى الله مالَهُ وإنْ كان عنه ذا غِنًى وَهْوَ قَابِلُه

---

(1) الشافعي (حياته وعصره.. آراؤه وفقهه) لمحمد أبو زهرة: ٦١.

(2) الطنافس: جمع: طَنْفَسَة/ طِنْفَسَة/ طِنْفِسَة/ طُنْفُسَة: النُّمْرقة فوق الرَّحْل/ البِساط الذي له خَمْلٌ رقيق/ ثوب/ حصير من سَعَف عرضُه ذراع، وهي كلمة فارسية، وقيل: هي من أصل يوناني. انظر: المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل: ٣٣٨.

(3) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ١٨٧.

وأحياناً كان الخليفةُ يستقبل بعض الوفود في مثل هذا المجلس وغيره، وكان مثبَّتٌ فيه صندوقٌ خشبيٌّ مزيَّنٌ بألوانٍ تسرُّ الناظرين، فسألتُ عنه صاحبنا الذي أفادني بأنَّه مخصصٌ لخواتم الخلفاء التي كان يحرص المأمون على اقتنائها وجمعها من كلِّ النواحي، وعليها صاحبُ الوقوف وهو المتعهِّد بصيانتها من قِبَلِ أمير المؤمنين، وقد أخرجَ إلينا من هذه الوقوف خاتماً من الفضة للوليد بن عبدالملك، نُقِشَ عليه: «**يا وليد، إنَّك ميتٌ ومُحاسَب**»، وآخر لسليمان وكلماته: «**آمنتُ بالله مُخلصاً**»[1]، ثمَّ رفعَ الرحَّالةُ يده إلى الأعلى مشيراً إلى كلمةٍ نُقِشَت فوق مجلس الخليفة بماءِ الذَّهَب، وكانت في مواجهة أشعة الشمس التي جعلتها تبدو زاهيةً وكأنَّها تنبُضُ بالحياة: «**إِمَامٌ عَادِلٌ خَيْرٌ مِنْ مَطَرٍ وَابِلٍ**»[2].

المأمونُ والشَّطْرَنج

على بُعد خطواتٍ يسيرة من هذا المجلس الأنيق، نُصِبَت رُقْعَة شَطْرَنج[3] حَمراء مِن أدَم، وقد أخَذَ الرحَّالة يصفُ هذه الرُّقعة التي

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ٢١٨.

(2) علي بن أبي طالب: أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ١٦٥.

(3) شِطْرَنْج/ سِطْرَنج/ شَطَرَنْج/ أَسْبَرَنج: اللعبة المعروفة، أخذها العرب عن الفرس، وقيل في أصلها الفارسي: «شُدْرَنْك» أي مَن اشتغلَ به ذهب عناؤه باطلاً، وقيل: «صدرنك» أي: مائة حيلة، وقيل: «شُتْرَنْگ» أي: بلون الجَمَل وشكله، وقيل:

اتُّخِذَت أدواتُها من العاجِ المنقوش، صنعهُ نقَّاشٌ نصراني اسمه يوسُف الباهلي، ورسمَ اسمه على الأداة التي تمثِّل الشاة، وهي من الحُسن بحيث إنَّ الناظرَ إليها يُكبِر صناعتها، وقد مثَّل فِيلاً يلفُّ خرطومه على فارسٍ وعلى رأسه جندي قد أخَذَ بزمامه، ومِن حولِه ثمانية فرسان يُراد بهم الرَّمز إلى البيادق[1] الثمانية الذين يناضلونَ عن الشاة، وعلى ظهره هودجٌ مُزخرف بأنواع الرسوم، قد استوى فيه مَلِكٌ على رأسِه تاج مثل تيجان ملوك حِمْيَر، وقد أظهر هذا الرسَّام في تصويره من الحذقِ ما يستحقُّ عليه الثناء؛ لأنَّ مثَّل أصحاب الفيل كما هُم، وجعلَ في آذانهم أقراطاً وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطق[2] وهي لباس الهنود، واتخذَ عدد الخيل مُزخرفة وصنعَ لها

«أسب رنگ» أي: بلون الجَوَاد، وعُرِّبت بـ «أسبرنج» أو «شَتَرَرَنْگ» أي: ستة ألوان؛ وذلك لأنَّ للعبة ستة ألوان لستة أصناف من قطع اللعبِ: الشاة، والفرزان، والرُّخّ، والفرس، والفيل، والبيدق، وقيل: أصلها سنسكريتي هندي: «جَتْرانگا» أي: بشكل أربعة جيوش؛ وهي أنواع الجند عندهم: الخيل، والأفيال، والمركبات، والمُشاة. انظر: المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل: ٣٠٧ – ٣٠٨.

(1) البيادق: جمع: بيدَق، وهم المُشاة من العسكر، والبيدق في الشَّطْرنج: الواحد من مشاة الحرب، وهي كلمة فارسية من «پياده» أي: الراجِل والماشي. انظر: المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل: ١١٧.

(2) قُرْطَق/ قُرْطُق: لباسٌ شبيه بالقَبَاء، أو هو قَبَاء ذو طاق واحد؛ لباس قصير، يجُمع على «قراطق»، وقد صاغوا منه فعل «قرطق» أي: لبس أو ألبس القرطق، ومنه «مقرطق» أي: لابس القرطق، من الفارسية «كَرْتَه»، قال ابن المعتز: (من الكامل)

السُّروج والأزِمَّة، وقلَّد الفرسان شيئاً من السلاح ما عدا الجندي الذي أخذه الفيل بخرطومه؛ فإنَّه يُعالج نفسه للخلاصِ مما هو فيه، وقد طرحَ سلاحه على الأرض وعليه سمة التوجُّع والانكماش مما يشهد للممثِّل بأنَّه من مَهَرَة الصُّنَّاع[1].

أخَذَ هذا الوصفُ البديع بمجامعِ قلوبنا عند سماعه من صاحبنا الرحَّالة ذو الباعِ الطويل في قصور العباسيين، وقد بدا تأثير الثقافة الهندية على هذه الرُّقعة المصنوعة أدواتها من العاج المنقوش.

استطردَ الرحَّالة في حديثه بأنَّ تلك اللُّعبة كانت مِن وسائلِ التسليةِ المعروفةِ عندهم، وقد عُرِفَت لأولِ مرَّة في عهد الرشيد الذي قرَّب هواة الشَّطْرنج والنَّرْد وأجرى عليهم الرزق، فسَمَّى الناسُ أيامه لنضارتها وكثرةِ خيرها: **أيام العروس**[2]، وكان الرشيد «أول خليفة لَعِبَ بالصَّوالجَة والكُرَة، ورمَى النشاب في البُرْجَاس، وأول خليفة لَعِبَ بالشَّطْرنج من بَنِي العبَّاس»[3].

وقد سارَ المأمونَ على نَهجِ والدِهِ في ذلك؛ فكان «يُحِبُّ لَعِبَ

ومُـقَـرْطَـقٍ يَسعى إلى الـنُّـدَمـاءِ بِـعَـقِـيـقَـةٍ في دُرَّةٍ بـيـضـاء

انظر: المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل: ٣٦٧.

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ٢٠٥ – ٢٠٦.

(2) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ١٠٣.

(3) تاريخ الخلفاء: ٤٧٠.

الشطرنج شديداً، ويقول: هو يشحذُ الذهن، واقترحَ فيها أشياء»، وكان يقول: «أنا أُدبِّر الدنيا فأتَّسع لذلك، وأضيقُ عن تدبيرِ شبرينِ في شبرين»[1]، وعندئذٍ شبَّك الرحَّالة أصابعه للدلالةِ على قول أمير المؤمنين.

ومن اللطائف التي ساقَها الرحَّالة أنَّ بعضُ الحُكَمَاء كانوا يشبِّهونَ رُقعَة النَّرْد بالأرضِ الممهَّدة لساكنها، ومنازل الرُّقْعَة وهي أربعة وعشرون بساعات الليلِ والنهار، وحجارتها وهي ثلاثون بعددِ أيام الشهر، واختلاف ألوانها باختلاف بياضِ النهار وسوادِ الليل![2].

وعندئذٍ قَفَزَ إلى ذهني اثنين من أهل الأدب في العصر العبَّاسي، مِمَّن نُسِبوا إلى هذه اللُّعبة، وهما:

* **أبو حَفْص الشَّطْرَنْجِي** (ت: ٢١٠هـ): واسمهُ عُمَر بن عبدالعزيز، وكان أديباً ظريفاً، شغف بالشَّطْرنج فنُسبَ إليه، وكان أبوهُ من موالي المنصور، واسمه أعجمي، فغيَّره بعبدالعزيز[3].

* **أبو بَكْر الصُّولِي الشَّطَرَنْجِي** (ت: ٣٣٥هـ): واسمهُ مُحَمَّد بن

---

(1) نفس المصدر السابق: ٥٠٧.

(2) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ١٠٣.

(3) الأعلام: ٥/ ٥٠.

يَحْيَى بن عبدالله، وكان من أكابر علماء الأدب، نادَمَ ثلاثة من خلفاء بني العبَّاس، وهم: الرَّاضِي والمُكتفِي والمُقتَدِر، وقد ورَدَ في ترجمته أنَّه «كانَ مِن أحسنِ النَّاسِ لعباً بالشَّطْرنج»[1].

رُكن الفقهاء

وقد كان في المجلس ركنٌ مخصَّصٌ للسَّادة الفقهاء، وفيه يجلس قاضيَ قضاةِ المسلمين، فألفيته في مجلسٍ حافلٍ بالأدباءِ والأمراء وعليه المبطَّنة والطَّيْلَسان وقَلَنْسوة طويلة قد حوَّطها بعمامةٍ سوداء دعتْه الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتِّخاذها على لون شعارهم، وهذا هو الزِّي الذي يروم أنْ يكونَ مخصوصاً بالفقهاء لتمييزهم عن سائر الناس[2].

أخَذَ القَيِّمُ يصوِّر لنا هذا المجلس الفسيح وكأنَّه ساحةٌ أدبيةٌ يتبارى فيها شُعراء البلاط العباسي في مدح الخليفة وبطانته، وقد أخبرنا أنَّ أولَ الشعراءِ مَدْحاً لِبَنِي العبَّاس في خلافتهم كان يُدعَى **المُخَيِّس بن أَرْطأة الأعرجي**، أبو ثمال (ت: نحو ١٤٥هـ)، وهو راجزٌ شامي، اشتهرَ في أيام مَرَوَان بن مُحَمَّد، آخر المروانيين من بَنِي أميَّةَ في الشام، وعاش حتى مَدَحَ السَّفَّاح والمنصور العبَّاسِيَّيْن[3].

(1) نفس المصدر السابق: ٧/ ١٣٦.

(2) حضارة الإسلام في دار السلام: ٨١.

(3) الأعلام: ٧/ ١٩٥.

ثمَّ أخَذَ يصفُ لنا خِلالَ المأمون الذي كان مِن أكثرِ النَّاسِ عَفواً، وأشدُّهم احتمالاً، وأحسنهم مقدرة، وأجودهم بالمال الرغيب، وأبذلُهم بالعطايا، واتَّبعه وزراؤه وأصحابه في فعله، وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه، وكان من عادتِه أنْ يستقبلَ أهلَ الحِكْمَةِ والأدَب في مثل هذه المجالس، ومِن بينِ هؤلاء **سَعِيد بن مُسْلِم** الذي قالَ للمأمون يوماً: لو لَمْ أَشْكُر الله تعالى إلا على حُسْنِ ما أَبْلانِي من أَميرِ المؤمنين من قَصْدِه إليَّ بحديثه، وإشارتِه إليَّ بِطَرْفه؛ لقد كان في ذلكَ أَعظمُ الرِّفعة.

فقالَ المأمون: يفعل أميرُ المؤمنين ذلك؛ لأنَّ أميرَ المؤمنين يَجِدُ عندك من حُسْن الإفهامِ إذا حَدَّثتَ وحُسن الفهمِ إذا حُدِّثت ما لا يجدُه عند أحَدٍ مِمَّن مَضَى، ولا يظنُّ أنَّه يجدُه عند أحَدٍ مِمَّن بَقي، فإنَّك لتَسْتَقْصِي حديثي، وتَقِفُ عند مقاطعِ كلامي، وتُخْبِرُ بما كنتُ أغفلتُه منه[1].

كما أخبرنا بقصةِ **أَبِي عَمْرو العَتَّابِي**، وهو أحد مَن وفدوا على المأمون في مجلسِه، واسمُهُ كُلثُوم بن عَمرو بن الحارث التَّغلبي، وكان العَتَّابِيُّ مِمَّن اجتمعَ له الخطابة، والبيان، والشِّعر الجيِّد، والرسائلُ الفاخرة، وكان صاحبَ بديهةٍ في المنظومِ والمنثور، حسنَ العقل والتمييز، والعربُ تقول: مَن تمنَّى رجلاً حسنَ العَقْلِ، حسنَ البيانِ، حسنَ العِلم، تمنَّى شيئاً عسيراً، وقد اجتمعَ ذلك كلُّه للعَتَّابِي.

(1) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ١٩٣ - ١٩٤.

ثمَّ أخذَ يحدِّثنا بخبرِ العَتَّابِي الذي كانَ يميلُ إلى المأمون؛ فلمَّا خرَجَ المأمونُ إلى خُراسان شيَّعه حتى وصلَ معه إلى سندان كِسرى، فقالَ له المأمون: سألتك بالله يا عَتَّابِي إلا عملتَ على زيارتنا إنْ صارَ لنا من هذا الأمرِ شيء، فلمَّا وَلِيَ المأمونُ الخلافةَ، ودخل بغدادَ سنة أربع ومئتين، توَصَّل إليه العَتَّابِي، فلم يُمكِنه الوصول، فقالَ للقاضي يَحْيَى بن أَكْثِم: إن رأيتَ أن تُعلِمَ أميرَ المؤمنين بمكاني! فقالَ: لَسْتُ بحاجب! قال: قد علمت، ولكنكَ ذو فضل، وذو الفضل مِعوان! فقال: سلكتَ بي غيرَ طريقي! قال: إنَّ اللهَ تعالى ألحقَكَ بجاهٍ ونعمة، وهما يقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، والتغييرِ إن كفرت، وأنا اليومَ لك خيرٌ منك لنفسك؛ أدعوك لما فيه زيادةُ نعمتك، وأنتَ تأبَى ذلك؛ ولكلِّ شيءٍ زكاة، وزَكاةُ الجاهِ بَذْلهُ للمستعين، فدخلَ يَحْيَى على المأمون فقال: أجِرْني من لسان العتَّابي، فلَهَا عنه، ولم يأذن له، فلمَّا طالَ عليه، كَتَبَ إليه:

ما على ذلـك افترقنا بسندا ... نَ ولا هكذا عَهِدْنا الإخَـاءَ
لم أكن أحسَب الخلافةَ يزدا ... دُ بها ذو الصَّفاء إلا صفاءَ
تضرب الناسَ بالمثقَّفة السُّمـ ... ـرِ على غَدْرِهم وتنسى الوفاءَ

فهو يعرِّض بقتله لأخيه على غَدره، ونكثِه لِمَا عقد الرشيد؛ فلما قرأ المأمون الأبياتَ أمرَ أن يُدخَل عليه، فلما سلَّم قال: يا عَتَّابِي، بلغني وفادَتُكَ فسرَّتني، وقد كانَتْ بلَغَتنِي وفاتُكَ فساءتني، وإنِّي

لَحَرِيٌّ بالغمِّ لبُعدِك، والسرورِ بقُربك!

فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ لو قُسم هذا الكلامُ على أهلِ الأرضِ لوسعهُم عَدلاً وأعجزهم شُكراً، وإنَّ رضاكَ لغايةُ المُنَى؛ لأنَّه لا دينَ إلا بك، ولا دنيا إلا معك، قال: سَلْنِي، قالَ: يَدُكَ بالعَطِيَّة أطْلَقُ مِن لساني بالمسألة، فأمرَ له بخمسينَ ألفاً[1].

ولأنَّ هذا الرُّواق كان مخصَّصاً لمجالس الخطابة، فقد وجدنا منقوشاً في إحدى جوانبه أحدُ الأسماءِ التي برزت في الخطابة خلال العصر الجاهلي، وهو **سَبَأ بن يَشْجُب بن يعرب بن قحطان** الذي كان مِن كبار ملوك اليمن في الجاهليةِ الأولى، ووصفه مؤرِّخوه بالشجاعة وعلوِّ الهمَّة، وقالوا: إنَّه طمح إلى إخضاع القبائل النائية، فحاربها، وأُولع بالعمران، فابتنَى مدينة مأرب وفيها السَّد، وقالوا: إن سَبَأ أول مَن خَطَبَ في الجاهلية، ولم تكن الخطابة على ملأٍ مِنَ النَّاسِ معروفةً قبلَه[2].

حُكَماء الإسلام

كان في مقابلِ مجلس الخليفة قائمة بأسماءِ هؤلاء الحُكَمَاء الذين خلَّفوا ثروةً عظيمةً من الحِكَم والنوادرِ والأمثال، وقد بدا لنا أنَّ هذه

(1) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/ ٤٦ - ٤٧.

(2) الأعلام: ٣/ ٧٦.

القائمة تَمَّ انتقاؤها بعنايةً شديدة، فكانَ في مقدِّمتها[1]:

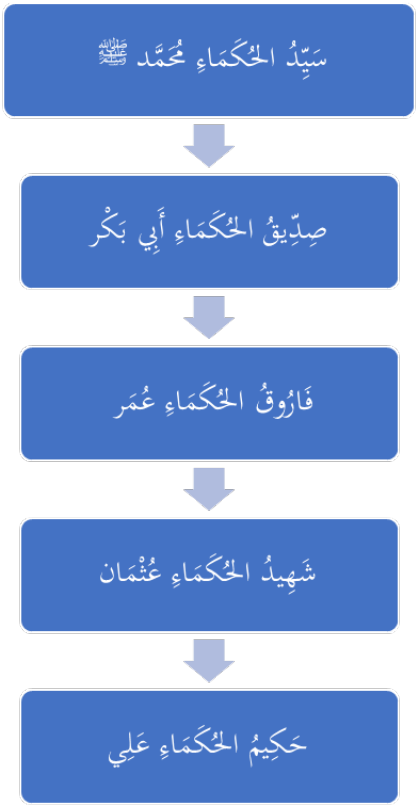

سَيِّدُ الحُكَمَاءِ

اصْطَحَبَنا القَيِّم نحو هذه القائمة التي كُتِبَ في أوَّلِها «**سَيِّدُ الحُكَمَاءِ مُحَمَّد ﷺ**»..

(1) المسمَّيات القادمة من كلام المؤلِّف، إلا أنَّ ما ثَبَتَ منها تاريخياً سوف تتمُّ الإشارة إليه.

ثمَّ أخَذَ يحدِّثنا ببعضِ حكمتِهِ ﷺ قبلَ البعثةِ؛ فأشارَ إلى قضية التحكيم الشهيرة التي وقعت أثناء بناء الكعبة قبل مبعَثِهِ ﷺ بخمسِ سنين..

فحينما اضطرَّت قريش إلى تجديدِ بناءِ الكعبة بعدما جَرَفَ مكَّةَ سَيلٌ عَرِم، اتَّفقوا على ألا يُدخلوا في بنائها إلا طيباً، فلا يدخلون فيها مهر بغي ولا بيع رِباً ولا مظلمةَ أحدٍ مِن الناس، وكانوا يهابون هدمها، وبعدما ابتدأ الوليد بن المغيرة بهدم ناحية الركنين ولم يصبه شيء، تبعهُ الناس في الهدم في اليوم الثاني، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ﷺ، ثمَّ أرادوا الأخذَ في البناء فجزَّأوا الكعبة، وخصَّصوا لكلِّ قبيلةٍ جزءاً منها، فجمعت كلُّ قبيلةٍ حجارةً على حدة، وأخذوا يبنونها.

ولَّما بَلَغَ البناءُ موضعَ الحجرِ الأسود، اختلفوا فيمَن يمتازُ بشرفِ وضعه في مكانه، واستمرَّ النزاع أربع ليالٍ أو خمساً، واشتدَّ حتَّى كادَ يتحوَّل إلى حربٍ ضَروسٍ في أرضِ الحرم!، إلا أنَّ أبا أُميَّة بن المغيرة المخزومي عرَضَ عليهم أن يحكِّموا فيما شَجَرَ بينهم أولَ داخلٍ عليهم من باب المسجد، فارتضوه.

وشاءَ اللهُ تعالَى أنْ يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلمَّا رأوهُ هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمَّد، وهنا ظهرت حكمته ﷺ حينما

أخبروه بالأمر، فطلب رداءً ووضعَ الحَجَر وسطه، ثمَّ طلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرِّداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتَّى إذا أوصلوه إلى موضعه، أخذه بيده فوضعه في مكانه[1]!

صِدِّيقُ الحُكَمَاء

وبعدَ النَّبِيِّ ﷺ، رأينا مكتوباً «**صِدِّيقُ الحُكَمَاء أَبِي بَكْر**»..

ويحدِّثنا القَيِّم أنَّ الصِّدِّيق رضي الله عنه كانَ مِن أفصحِ الناس وأخطَبِهِم، فكان الفاروقُ عمر رضي الله عنه يُحدِّث عن ذلك في حديثِ السَّقِيفَة، فيقول: «ثمَّ تكلَّمَ أبو بكر فتكلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ»، وفي حديثٍ آخر: «أَرَدْتُ أنْ أتكلَّم، وكنتُ قد زَوَّرْتُ[2] مقالةً أعجبتْني أريدُ أنْ أقدِّمها بين يَدَي أبي بكر.. فتكلَّم أبو بكر، فكانَ هو أحلمَ منِّي وأوقَر، والله ما ترك من كلمة أعجبتْني في تزويري إلا قالَ في بديهته مثلَها أو أفضلَ منها، حتى سَكَت»[3]، وكان نقشُ خاتِمِهِ رضي الله عنه: «**نِعْمَ القَادِرُ الله**»[4].

---

(1) الرحيق المختوم: بحثٌ في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، صفي الرحمن المباركفوري، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٥هـ، ص ٧٨.

(2) زَوَّرَ الشَّيْءَ: حَسَّنَه وزَيَّنَه. انظر: المعجم الوسيط: ٤٠٦.

(3) صحيح الإمام البخاري، رقم الحديث: ٣٦٦٨، ٦٨٣٠.

(4) أبو بكر الصِّدِّيق، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدَّة، الطبعة السادسة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٢٩٥.

وقالَ بعضُ أهلِ العِلْم: **خُطَبَاءُ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ: أبو بَكْر الصِّدِّيق، وعَلِي بن أَبِي طَالِب رضي الله عنهما**[1].

وكانَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه إذا عَزَّى رجلاً قال: «**لَيْسَ مَعَ العَزَاءِ مُصِيبَة، وَلا مَعَ الجَزَعِ فَائِدَة، المَوْتُ أَهْوَنُ مَا قَبْلَه، وَأَشَدُّ مَا بَعْدَه، اذْكُرُوا فَقْدَ رَسُولِ الله ﷺ تَصْغُرْ مُصِيبَتُكُم، وَأَعْظَمَ اللهُ أَجْرَكُم**»[2].

وكانَ إذا أُثْنِيَ عليه يقول: **اللهمَّ أنتَ أعلَمُ بي مِن نفسي، وأنا أعلمُ بنفسي منهم، فاجعلني خيراً مِمَّا يَحْسَبُون، واغفر لي برحمتك ما لا يعلمون، ولا تؤاخِذْنِي بما يقولون.**

وكانَ رضي الله عنه يقولُ في بعضِ خُطَبِه: **إنَّكُم في مَهَل، مِن ورائِهِ أَجَل، فبادِروا في مَهَلِ آجالِكُم، قبلَ أنْ تنقطعَ آمالُكم، فتردَّكم إلى سوءِ أعمالكم**[3].

فَارُوقُ الحُكَمَاءِ

وبعدَ الصِّدِّيق رضي الله عنه، رأينا مكتوباً «**فَارُوقُ الحُكَمَاءِ عُمَر**»..

ويحدِّثنا القَيِّم أنَّ مِن عُيُونِ كَلامِ الفَارُوق رضي الله عنه في الحِكمَة: «**مَتَى**

---

(1) عن الزُّبَيْرْ بن بَكَّار رحمه الله (ت: ٢٥٦هـ). انظر: تاريخ الخلفاء: ١١٩.

(2) أبو بكر الصِّدِّيق: خليفةُ رسولِ الله ﷺ، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ٢٨٦.

(3) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ٧٤.

اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَد وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَاراً!»[1].

ويقول ﷺ: «**لَولا أنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ الله، أَو أَضَعَ جَبِينِي لله فِي التُّرَاب، أَو أُجَالِسِ قَوْماً يَلتَقِطُونَ طَيِّبَ الكَلامِ كَمَا يُلتَقَطُ الثَّمَرَ - لأحبَبتُ أَنْ أَكُونَ قَد لَحِقتُ بِالله**»[2].

وَقَد سَأَلَ رَجُلٌ الفَارُوقَ عُمَر ﷺ: مَن السَّيِّد؟

فقال: «**الجَوَادُ حينَ يُسْأَل، والحليمُ حينَ يُسْتَجْهَل، والكريمُ المجالسةِ لِمَن جالَسَه، والحَسَنُ الخُلُقِ لِمَنْ جاوَرَه**».

ويقولُ ﷺ: ما كانتِ الدُّنيا هَمَّ رَجُلٍ قَطُّ إلا لَزِمَ قلبَه أربعُ خِصَال:

فقرٌ لا يُدْرَك غناه، وهمٌّ لا ينقَضِي مَدَاه، وشُغْلٌ لا يَنْفَذُ أُولاه، وأملٌ لا يبلُغ مُنْتَهَاهُ[3].

شَهِيدُ الحُكَمَاء

وبعدَ الفَارُوق ﷺ، رأينا مكتوباً «**شَهِيدُ الحُكَمَاءِ عُثْمَان**»..

ويحدِّثنا القَيِّم أنَّه لم يُوْثَر عن عُثمَان ﷺ من الأقوالِ والحِكَم مثلما

(1) عُمَر بن الخطَّاب: الخليفة الراشدي العظيم، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ١٥٢.

(2) نفس المصدر السابق: ١٥٣.

(3) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ٧٧.

جاءَ عن عُمَرَ وعَلِيّ رضي الله عنهما، بَيْدَ أنَّه فاضَ من قلبه وروحه بكلماتٍ رقيقة تعبِّر عن ربَّانيَّته وشمائله الرفيعة، ومِن ذلك:

*** لو أنَّ قلوبنا طَهُرَت؛ ما شَبِعْنَا من كلام ربنا، وإنِّي لأكرهُ أنْ يأتي عَلَيَّ يومٌ لا أنظرَ في المصحف.**

*** أربَعةٌ ظَاهِرُهُنَّ فَضِيلَة وباطِنُهُنَّ فَرِيضَة: مُخَالَطَةُ الصَّالِحِينَ فَضِيلَة والاقْتِدَاءُ بِهِم فَرِيضَة، وتِلاوَةُ القُرآنِ فَضِيلَة والعَمَلُ بِهِ فَرِيضَة، وزِيَارَةُ القُبُورِ فَضِيلَة والاستعْدَادُ للمَوتِ فَرِيضَة، وعِيَادَةُ المَرِيضِ فَضِيلَة واتِّخَاذُ الوَصِيَّةِ فَرِيضَة.**

*** هَمُّ الدُّنيَا ظُلمَةٌ فِي القَلْب، وَهَمُّ الآخِرَةِ نُورٌ فِي القَلْب**[1].

حَكِيمُ الحُكَمَاء

وبعدَ الفَاروق ﷺ، رأينا مكتوباً «**حَكِيمُ الحُكَمَاءِ عَلِيّ**»..

ويُحدِّثنا القَيِّم أنَّ أميرَ المؤمنين عَلِيّ بن أَبِي طَالِب ﷺ، كانَ خَطِيباً مِصْقَعاً[2]، فَصِيحَ اللِّسَان، عَالِيَ البَيَان، اتَّفقَت كلمةُ العُلماء والأدَباء على أنَّه عَلَمٌ مِن أعلام البلاغَة، وإمَامٌ مِن أئمةِ الفَصَاحَة، امتلأت

---

(1) عُثمان بن عفَّان: الحَيي السَّخِي ذو النورين، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ٩٥ - ٩٦.

(2) المِصْقَعُ: البليغُ يتفنَّن في مذاهب القول، وقالوا: خطيبٌ مِصْقَعٌ. انظر: المعجم الوسيط: ٥١٨.

كُتُبُ الأدبِ والتاريخِ بِخُطَبِهِ البليغَة وكلماتِهِ البديعَة وحِكَمِهِ النادرَة وأمثالِهِ السَّائرة مع شِعْرِهِ الرَّقيق.

كما يُحدِّثنا بأنَّ حِكَمَهُ ﷺ كانت تدورُ حولَ معاني الزُّهد؛ حتى قيل أنَّهم تذاكروا الزُّهَادَ يوماً عند عمر بن عبدالعزيز، فقال: **أزهدُ النَّاسِ في الدُّنيا عَلِيّ بن أَبِي طَالِب**[1]، ثمَّ أَخَذَ القَيِّمُ يقرأُ علينا وصيَّتَهُ الحَكِيمَة إلى **كُمَيْل بن زِيَاد النَّخعي** (ت: ٨٢هـ)؛ وفيها:

أَخَذَ عَلِي بن أَبِي طَالِب بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي إلى نَاحِيَةِ الجَبَّان[2]، فلمَّا أَصْحَرْنَا[3] جَلَس، ثمَّ تَنَفَّس، ثُمَّ قَال:

يا كُمَيْل بن زِيَاد! القلوب أوعية فخَيْرُها أوعاها للعلم، احفظ ما أقولُ لك:

النَّاسُ ثلاثة: عالمٌ ربانيّ، ومتعلِّمٌ على سبيلِ نجاة، وهَمَجٌ رَعَاع أتباعُ كلِّ نَاعِق، يميلونَ مع كلِّ رِيح، لم يستضيئوا بنورِ العلم، ولم يلجؤوا إلى رُكْنٍ وَثِيق.

العِلْمُ خَيْرٌ مِنَ المَال: العِلْمُ يَحْرُسُكَ وأنتَ تَحْرُسُ المَال، العِلْمُ يَزْكُو على العَمَل، والمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَة، ومَحَبَّةُ العَالِمِ دِينٌ يُدَانُ بِهَا.

---

(1) نزهة الفضلاء: ٩١.

(2) الجَبَّان والجَبَّانَة: الصحراء، وتُسَمَّى بها المقابر. انظر: المعجم الوسيط: ١٠٦.

(3) أَصْحَرَ القَومُ: برزُوا في الصَّحراء. انظر: المعجم الوسيط: ٥٠٨.

العِلْمُ يُكْسِبُ العَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِه، وجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ[1] بعدَ مَوتِه، وصَنِيعَةُ المَالِ تَزُولُ بِزَوَالِه.

مَاتَ خُزَّانُ الأَمَوالِ وَهُم أَحْيَاءٌ، والعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْر، أَعْيَانُهُم مَفقُودَة، وأمثالُهُم في القُلُوبِ مَوجُودَة.

هاه! إنَّ هَاهُنا - وأشارَ بيدِه إلى صَدرِه - عِلْماً لو أَصَبتُ لَهُ حَمَلَة!

بَلَى أصبته لَقِناً[2] غيرَ مأمون؛ يستعمِلُ آلَةَ الدِّينِ للدُّنيا، يستظهرُ بِحُجَجِ اللهِ على كِتَابِه، وبِنِعَمِهِ على عِبَادِه.

أو مُنقاداً لأهلِ الحقِّ لا بصيرةَ له في إحيائِه، ينقدحُ الشَّكُّ في قَلبِهِ بأوَّلِ عَارِضٍ مِن شُبْهَةٍ، لا ذَا ولا ذَاك، لا يَدرِي أينَ الحق؟ إنْ قالَ؛ أخطأ، وإنْ أخطأَ؛ لم يَدرِ، مشغوفٌ بما لا يُدْرَى حقيقتُه، فهو فتنةٌ لمن افتُتِن به، وإنَّ من الخيرِ كلِّه مَن عرَّفهُ اللهُ دينه، وكَفَى بِالمَرءِ جَهْلاً أنْ لا يعرِفَ دينهُ.

أو منهُوماً باللَّذَّاتِ، سَلِسَ القِيَادِ للشَّهَوَات.

أو مُغْرَىً بجمعِ الأموَالِ والادِّخَار، وليسَ مِن دُعَاةِ الدِّين،

---

(1) الأُحْدُوثَة: ما يُتَحَدَّثُ به، ويُقال: صَارَ فُلانٌ أُحْدُوثَة: كَثُرَ فيهِ الحديث. انظر: المعجم الوسيط: ١٦٠.

(2) اللَّقِن: يُقال: هو ثَقِفٌ لَقِنٌ، أي: فَهِمٌ حَسَنُ التَّلَقُّن لما يسمعه. انظر: المعجم الوسيط: ٨٣٥.

أقرَبُ شَبَهاً بالأنعَامِ السَّائِمَة.

اللَّهُمَّ بَلَى؛ لَن تَخْلو الأرضُ مِن قَائِمٍ لله بِحُجَّة لكي لا تَبْطُل حُجَجُ الله وبَيِّناتُه، أولئكَ هُم الأقلُّونَ عَدَداً، الأعظَمُونَ عندَ الله قَدْراً، بِهِم يَدفَعُ اللهُ عن حُجَجِهِ حَتَّى يُؤَدُّوها إلى نُظَرَائِهِم، ويزرَعُوها في قُلُوبِ أشباهِهِم، هَجَمَ بِهِم العِلْم عَلَى حَقِيقَةِ الأَمْر، فَاسْتَلانُوا ما اسْتَوْعَرَ مِنْهُ المُتْرَفُون، وأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُون، صَحِبُوا الدُّنيا بأَبْدَانٍ أروَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ في المَحَلِ الأعْلَى، أولَئِكَ خُلَفَاءُ الله في بِلادِه، ودُعاتُهُ إلى دِينِه.

هاه هاه! شَوقاً إلى رُؤيَتِهِم، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي ولَك، إذَا شِئْتَ فَقُم[1].

لُقْمَانُ الحَكِيم

وبعدَ النَّبِيِّ ﷺ والخلفاء الراشدين الأربعة، رأينا مكتوباً «**لُقْمَانُ الحَكِيم**»..

ويحدِّثنا القَيِّم أنَّ هذا لُقْمَان الذي آتاهُ اللهُ الحِكمَة، وشرَّفه بالذكرِ في كتابِهِ وروَى كلامَه، فصارَ مما يُتعبَّدُ به، وليسَ وراءَ ذلك غاية

(1) علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين): ١٦١ - ١٦٢، وقد انتقى الإمام ابن قَيِّم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) عيونَ الحِكمَة من هذه الوصية النفيسة، وذلك في كتابه «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة».

يتطلَّبها العبدُ مِنَ الشرفِ والمجد.

وهنا بدأ القَيِّمُ حديثه بأنَّ حكمة لُقمان مأثورة وكثيرة، لكنها غير متَّصلة الرواية ولا صحيحةَ الإسناد، وإذا استثنينا ما ورَدَ منها في القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الصحيحة، لا يبقى بأيدينا منها ما يُنسبُ له على طريق الجَزْم، إنَّما يمكن للباحث أن يطمئن إلى أنَّ هذه الحكمة له إذا قاسَهَا على ما عَلِمَ من حياته وأسلوب معيشته وطريقة تفكيره.

فأُعجبنا من هذا التأصيل العلمي الذي بادَرَنا به القَيِّم في مستهلِّ حديثه عن حكمة لُقمان، ثم قرأ علينا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَد آتَينا لُقمانَ الحِكمَةَ أَنِ اشكُر للهِ وَمَن يَشكُر فَإِنَّما يَشكُرُ لِنَفسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[1].

وفي السُّنَّةِ النبوية: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿**الَّذينَ آمَنوا وَلَم يَلبِسوا إيمانَهُم بِظُلم**﴾[2] شَقَّ ذلكَ علىَ المُسْلِمِيَن، فَقالوا: يا رَسولَ اللهَّ، أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قالَ: **ليسَ ذلكَ إنَّما هو الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا ما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وهو يَعِظُهُ ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[3].

---

(1) سورة لقمان: ١٢.

(2) سورة الأنعام: ٨٢.

(3) سورة لقمان: ١٣، صحيح الإمام البخاري، رقم الحديث: ٣٤٢٩.

ثمَّ أسمَعَنا مِن كلامِ الإمام الشافعيِّ في ذكرِ لُقمانَ الحكيمِ وفضلِه[1]:

لا يُدْرِكُ الحِكْمَةَ مَن عُمْرُهُ ... يَكْدَحُ في مَصْلَحَةِ الأَهْلِ
ولا ينَالُ العِلْمَ إلا فتًى ... خَالٍ مِن الأفكارِ والشُّغْلِ
لو أنَّ لقمانَ الحكيمَ الذي ... سارتْ به الرُّكبانُ بالفَضْلِ
بُلِي بِفَقْرٍ وعِيالٍ لَمَا ... فَرَّقَ بينَ التينِ والبَقلِ

ثمَّ أخذَ يقرأُ علينا بعضاً من حكمةِ لُقمان:

قِيلَ له: ما أقبَحَ وجهَك! قال: تعيبُ بهذا على النَّقْشِ أو على النَّقَّاش!

وسُئِل: أيُّ علمٍ أوثقُ في نفسِك؟ قال: تَرْكِي ما لا يعنيني.

وقِيلَ له: أيُّ النَّاسِ شر؟ قال: الذي لا يُبالي أن يراهُ النَّاسُ مسيئاً.

ورُوِيَ أنَّه لقيَهُ رجلٌ وهو يتكلم بالحكمة، فقال: ألستَ فلاناً الراعي، فبِمَ بلغتَ ما بلغت؟ قال: بصدقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، وترك ما لا يعنيني.

وقال: الإخوانُ ثلاثة: مُخَالِب ومُحَاسِب، ومُرَاغِب؛ فالمُخَالِب

(1) ديوان الشافعي: ١٢٢ - ١٢٣.

الذي ينالُ منكَ معروفك ولا يكافئُك، والمُحَاسِب الذي ينيلك بقدرِ ما يُصِيبُ منك، والمُرَاغِب الذي يرغبُ في مواصلتك بغيرِ طَمَع.

وقال: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه، فقد استكملَ الإيمان: مَن إذا رَضِيَ لم يُخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا غَضِبَ لم يُخرجه غضبُه مِنَ الحق، وإذا قَدَرَ لم يتناوَل ما ليسَ له[1].

حَكِيمُ الفُقَهَاء[2]

وبعدَ لُقْمَانَ الحَكِيم ﷺ، رأينا مكتوباً «**حَكِيمُ الفُقَهَاءِ الشَّافِعِيّ**»..

وهنا تذكَّرنا تلك الأشعارَ العذبَة المنسوبَة لهذا الإمام الجليل، والتي طرقتْ آذاننا خارج بيت الحِكمَة من قِبَلِ بعض طلبةِ العِلْم، ولا غَرْوَ في ذلك؛ فالشَّافِعِيُّ إمَامٌ في اللُّغةِ والأدَبِ والحِكمَة.

ويحدِّثنا القَيِّم أنَّه إذا كانَ المرءُ بأَصْغَرَيْهِ[3]؛ عقله ولسانه، فلقد كان الشَّافِعِيُّ على أَوْجِ التَّمام في ذلك؛ كانَ حَكِيماً عَاقِلاً بَعِيدَ الغَوْر، شَهِدَ له بالعقلِ كثيرون، حتى قالَ يُونُس الصَّدَفِيّ: «مَا رَأيتُ أعقَلَ مِنَ الشَّافِعِيّ، ناظرتُهُ يوماً في مسألةٍ، ثمَّ افترقنا، ولَقِيَنِي، فأَخَذَ

(1) لقمان الحكيم: ٤٠ – ٤٧.

(2) أطلقَ الشيخ سلمان العودة هذه التسمية على الإمام الشافعي، انظر: مع الأئمة: الجوامع والفروق والسِّيَر، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، الرياض، الطبعة الثالثة، رمضان ١٤٣٤هـ، ص ١٣١.

(3) الأصْغَرَان: القلبُ واللِّسَان. انظر: المعجم الوسيط: ٥١٥.

بيدي، ثمَّ قال: يا أبا مُوسَى، **ألا يستقيم أنْ نكونَ إخواناً وإنْ لم نتَّفِق في مسألَة**»[1].

ويُضيف بأنَّ الشَّافِعِيّ كان كثير التطوافِ بالبلاد؛ فاحتَكَّ بمختلف المدارس العلمية، واطَّلَعَ على ما تفرَّق من فِقْهِ علماء الأمصار، مع تجريبه للتعامل معهم ومع أهل تلك البلاد التي وَرَدَها، وهو الذي قال: «**العقل: التَّجربة**»، وقد قالَ بعض البلغاء: «التَّجربة مِرآة العَقْل»[2].

ومِن حِكمَتِهِ أنَّه قالَ يوماً: «**مَنْ تعلَّمَ القُرآنَ عَظُمَت قِيمَتُه، ومَنْ تكلَّمَ في الفِقْه نَمَا قَدْرُه، ومَن كَتَبَ الحديثَ قَوِيَت حُجَّته، ومَن نَظَرَ في اللُّغَة رَقَّ طَبعُه، ومَن نَظَرَ في الحِسَاب جزلَ رأيُه، ومَن لَم يَصُنْ نفسَه، لم ينفعه علمُه**»[3].

لُقْمَانُ هَذِهِ الأُمَّة

وبعدَ الإمام الشافعي رحمه الله، رأينا مكتوباً «**لُقْمَانُ هَذِهِ الأُمَّةِ حَاتِم الأَصَم**»..

ويحدِّثنا القَيِّم أنَّ اسمَهُ أبا عبدالرَّحْمَن، حَاتِم بن عنوان بن

---

(1) نزهة الفضلاء: ٨٦٤.

(2) عبقرية الإمام الشافعي: ١٤٩.

(3) من كلام المُزَنِي عن الشافعي. انظر: نزهة الفضلاء: ٨٦٤.

يُوسُف البَلْخِيُّ الوَاعِظ، **النَّاطِق بالحِكْمَة**، وكان يُقال له: لُقْمَان هذه الأُمَّة[1]، توفيِّ سنة ٢٣٧هـ.

فقُمنا بسؤالِهِ عن الأسباب التي أورثته تلك الحِكْمَة..

فأطرقَ يفكِّر قليلاً، ثمَّ ذكَرَ بأنَّ صُحبة حَاتِم الأَصَم لمعلِّمه الإمام الزاهد أبو عَلِي، شَقِيق بن إبراهيم البَلْخِي (ت: ١٩٤هـ)، هي التي أورثتهُ ذلك..

فكانَ مِمَّا وصلَنا مِن حِكْمِةِ معلِّمهِ شَقيق، أنَّه قال: لو أنَّ رجلاً عاشَ مئتي سنة لا يَعْرفُ هذه الأربعة، لم يَنْجُ: **معرفةُ الله، ومعرفةُ النفس، ومعرفةُ أمرِ الله ونهيه، ومعرفة عدُوِّ الله وعدُوِّ النفس**[2].

وفي إحدى الأيام، سألَ شَقِيق تلميذهُ حَاتِم: مُذْ صحبتَني، أيُّ شيءٍ تعلَّمتَ مني؟

قال: ستَّ كلمات:

* رأيتُ النَّاس في شكٍ من أمرِ الرزق، فتوكَّلتُ على الله. قال الله تعالى: ﴿**وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلّا عَلَى اللهِّ رِزقُها**﴾ (هود: ٦).

* ورأيتُ لكلِّ رجلٍ صديقاً يُفْشي إليه سرَّه، ويشكو إليه، فصادقتُ الخير؛ ليكونَ معي في الحساب، ويَجوز معي الصراط.

(1) أطلقَ عليه الإمام الذهبي هذه التسمية في كتابه «سير أعلام النبلاء».

(2) نزهة الفضلاء: ٨٤٢.

* ورأيتُ كلَّ أحدٍ له عدوٌّ، فمَن اغتابني ليس بعدُوِّي، ومَن أخذَ منِّي شيئاً ليس بعَدوِّي، بل عَدُوي مَن إذا كنتُ في طاعة، أمرني بمعصية الله، وذلك إبليس وجنوده، فاتخذْتُهم عدوًّا وحاربتُهم.

* ورأيتُ النَّاس كلَّهم لهم طالب، وهو مَلَك الموت، ففرَّغت له نفسي.

* ونظرتُ في الخلق، فأحببتُ ذا، وأبغضتُ ذا. فالذي أحْبَبْتُهُ لم يعطني، والذي أبغضتهُ لم يأخذ منِّي شيئاً، فقلت: مِن أين أُتيت؟ فإذا هو من الحَسَد فطرحتُه وأحببتُ الكلَّ، فكلُّ شيءٍ لم أرضَهُ لنفسي لم أرضَهُ لهم.

* ورأيتُ النَّاس كُلَّهم لهم بيتٌ ومأوى، ورأيتُ مأواي القبر، فكلَّ شيء قدَرْتُ عليه من الخير قَدَّمتُه لنفسي لأُعْمِرَ قبري.

فقالَ شَقِيق: عليكَ بهذه الخِصَال.

ثمَّ ساقَ لنا بعضاً من الشواهد الدالَّة على حِكْمَتِهِ:

قيل لحَاتِم: **على ما بنيتَ أمركَ في التوكُّل؟** قال: على خصالٍ أربعة:

* عَلِمْتُ أنَّ رزقي لا يأكلهُ، فاطمأنَّتْ به نفسي.

* عَلِمْتُ أنَّ عملي لا يعملهُ غيري، فأنا مشغولٌ به.

* عَلِمْتُ أنَّ الموتَ يأتي بغتةً، فأنا أبادِرُهُ.

* عَلِمْتُ أنِّي لا أخلوا من عينِ الله، فأنا مستحيٍ منه.

وعنه: **مَن أصبحَ مستقيماً في أربعٍ فهوَ بخير:**

التفقُّه، ثمَّ التوكُّل، ثمَّ الإخلاص، ثمَّ المعرفة.

وعنه: **تعاهد نفسَك في ثلاث:**

* إذا عملتَ، فاذْكُر نَظَرَ الله إليك.

* إذا تكلَّمتَ، فاذْكُر سمع الله مِنْك.

* إذا سَكَتَّ، فاذْكُر علمَ الله فيك[1].

الحَسَن البَصري (ت: ١١٠هـ)

وهو الحَسَن ابن أبي الحَسَن يسار، أبو سعيد، مولى زَيد بن ثابت الأنصاري (ت: ١١٠هـ)، كان سيِّد أهل زمانه علماً وعَمَلاً وحكمة. قال معمرُ بن سُليمان: كان أبي يقول: الحسنُ شيخُ أهل البصرة.

وقد أخذَ القَيِّم يحدثنا عن بعض مآثره وفضائله؛ فعن أبي بُردة، قال: ما رأيتُ أحداً أشبهَ بأصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْه، وعن مطر الورَّاق أنَّه قال: لَمَّا ظهرَ الحَسَن، جاء كأنَّما كان في الآخرة، فهو يُخبِر عمَّا عايَن!.

ومِن أظهرَ دلائل حكمتِهِ رحمه الله: ما ذُكِرَ عن الأعمش أنَّه قال: **ما زال الحَسَنُ يعِي الحِكْمَة حتى نَطَق بها**، وكان إذا ذُكر الحَسَنُ

(١) نزهة الفضلاء: ٩٧٩ - ٩٨٠.

عند أبي جعفر الباقر، قال: **ذاكَ الذي يُشْبِه كلامُه كلامَ الأنبياء**[1].

وكان الحَسَن يقول: «**إنَّ الحُكَمَاءَ ضَرَبُوا التَّفَكُّرَ بالتَّذَكُّر، والتَّذَكُّرَ بالتَّفَكُّر؛ حَتَّى نَطَقُوا بالعَزَائِمِ وَرَأوا العَجَائِب**»[2].

مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ)

وهو إمام دار الهجرة، حجَّةُ الأمَّة، أبو عبدالله مالكُ بنُ أنس بن مالك بن أبي عامر الحِميري، أحد حكماء العرب ووجوههم، وُلد سنة ٩٣هـ: عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ.

طلبَ العلمَ وهو ابن بضع عشرةَ سنةً، وتأهَّل للفُتيا، وجلسَ للإفادة، وله إحدى وعشرون سنة، وحدَّث عنه جماعةٌ وهو حيٌّ شابٌّ طريٌّ، وقصدَه طَلَبَةُ العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات.

وعندئذ قصَّ علينا القَيِّمُ طَرَفاً من حكمة الإمام مالك:

عَن عبدالله بن عبدالحكم، سَمعتُ مالكاً يقول: شاوَرني هارونُ الرشيد في ثلاثة:

* في أن يُعلِّق «الموطَأ» في الكعبة، ويحمِلَ الناسَ على ما فيه..

---

(1) نفس المصدر السابق: ٥٦٤.

(2) المجالسة وجواهر العلم: ٤٥٤.

* وفي أن ينقُضَ منبَر رسول الله ﷺ، ويجعله من ذهبٍ وفضةٍ وجَوهر..

* وفي أن يُقدِّم نافعاً إماماً في مسجد النبي ﷺ..

فقلتُ: أمَّا تعليقُ «الموطأ»، فإنَّ الصَّحابة اختلفوا في الفروع، وتفرَّقوا، وكلٌّ عند نفسه مصيبٌ، وأمَّا نقضُ المنبر، فلا أرى أن يُحرَمَ الناسُ أثَرَ رسول الله ﷺ، وأمَّا تقدمتُك نافعاً فإنَّه إمامٌ في القراءة، لا يُؤمَنُ أن تَبدُر منه بادرةٌ في المحراب، فتُحفَظ عليه، فقال: وفَّقك الله يا أبا عبدالله[1].

الأَحْنَف بن قَيْس (ت: ٧٢هـ)

وهو أحدُ مَن يُضربُ بحلمِهِ وسُؤْدُدِهِ المَثَل، فكان وجود اسمه في هذا الرُّوَاق دليلاً على عنايتهم البالغة بحكماء العرب، وهو العالِم النبيل، أبو بحر التَّميمي، واسمه «ضحَّاك»، وشُهر بالأحنف لِحَنَفِ رجليه، وهو العَوَجُ والمَيْل، وكان سيِّد تميم، وقد أسلمَ في حياة النبي ﷺ، ووَفَدَ على عُمر.

وقد أورَدَ لنا القَيِّم شيئاً من حكمته، فعن هشام بن عُقبة أخي ذي الرُّمَّة، قال: شهدتُ الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قومٍ في دمّ، فتكلَّم فيه، وقال: احتكِموا. قالوا: نحتكِم دِيَتَين، قال: ذاك لكم.

(١) نزهة الفضلاء: ٢/ ٧٤٨.

فلمَّا سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتُم، فاسمعوا: إنَّ الله قَضَى بديةٍ واحدة، وإنَّ النبي ﷺ قَضَى بديةٍ واحدة، وإنَّ العرب تعاطى بينها دِيةً واحدة، وأنتُم اليومَ تُطالِبُون، وأخشى أن تكونُوا غداً مطلوبين، فلا ترضى الناسُ منكم إلا بمثلِ ما سننتُم، قالُوا: رُدَّها إلى دِية.

وعن الأحْنَف: **ثلاثةٌ لا ينتصِفُونَ مِن ثلاثة:**

شَرِيفٌ مِن دَنِيء..

وبَرٌّ مِن فَاجِر..

وحَلِيمٌ مِن أحْمَق.

وقال: مَن أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالُوا فيه مالا يعلمون.

وعنه سُئل: ما المروءة؟ قال: كِتمانُ السِّرِّ والبُعد مِنَ الشَّر.

وعنه: الكامِلُ مَن عُدَّت سقطاتُه.

وعنه أنَّه قال: رأسُ الأدب آلةُ المنطِق..

لا خَيرَ في قَولٍ بلا فعل، ولا في منظرٍ بلا مَخْبَر، ولا في مالٍ بلا جُود، ولا في صديقٍ بلا وَفَاء، ولا في فِقْهٍ بلا وَرَع، ولا في صدقَةٍ إلا بنيَّة، ولا في حياةٍ إلا بصحَّةٍ وأمْن.

وعن الحَسن، قال: رأى الأحنَف في يدِ رجلٍ درهماً، فقال: لِمَن

هذا؟ قال: لي. قال: ليس هو لك حتَّى تُخرجه في أجرٍ أو اكتساب شُكر، وتمثَّل:

أنت للمالِ إذا أمْسَكْتَهُ وإذا أنفقتَهُ فالمالُ لك

عُبَيْدالله بن عبدالله بن عُتْبَة (ت: ٩٨هـ)

الإمام، الفقيه، مُفتي المدينة وعالِمُها، وأحدُ الفقهاء السبعة، أبو عبدالله الهُذَلي.

كان عُبَيْدالله معلِّماً لعُمَرَ بن عَبدالعَزِيز، وقد كتَبَ عُبَيدُالله إليه يوماً من شِعْرِ الحِكمَة:

بِسمِ الَّذي أُنزلت مِن عِندِهِ السُّوَرُ والحمدُ للهِ أمَّا بَعدُ يا عُمَرُ
إنْ كُنتَ تَعْلَمُ مَا تَأتي ومَا تَذَرُ فَكُنْ على حَذَرٍ قد يَنْفَعُ الحَذَرُ
واصبِر على القَدَرِ المَحتُومِ وارضَ بِهِ وإنْ أتاكَ بِمَا لا تَشتهي القَدَرُ
فما صَفا لامرئٍ عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ إلا سيَتْبَعُ يَوماً صَفوَهُ كَدَرُ[1]

تُبَيْع بن عَامِر الحِمْيَري (ت: ١٠١هـ)

وهو الحَبْر، ابن امرأة كعبِ الأخبار، قَرَأَ الكُتُب، وأسلمَ في أيام أبي بكرٍ أو عُمَر، وكان مِمَّن يوصفونَ بالحكمة؛ فعَن حُسين بن شُفَي، قال: كنَّا عند عبدالله بن عمرو، فأقبلَ تُبَيع، فقال: أتاكم أعرَفُ مَن

(١) نزهة الفضلاء: ٥٣٤.

عليها، ثمَّ قال له: يا تُبَيع! أخبِرنا عن الخيرات الثلاث؟

قال: **اللسانُ الصَّدوق، وقلبٌ تَقِيّ، وامرأةٌ صالحة**[1].

الأَنْطَاكِي (ت: ٢٣٩هـ)

الإمـامُ القُدوة، واعظُ دمشق، أبو عبدالله أحمد بن عاصم الأنطاكِيُّ الزَّاهِد.

قال أحمد بن أبي الحَوارِيِّ: سمعتُ أحمد بن عاصم، يقول:

أصلحْ فيما بقي، يُغْفَرْ لَكَ ما مَضَى، ما أغْبِطُ إلا مَن عَرَفَ مولاه.

ومِن حِكْمَتِهِ أنَّه كانَ يقول:

الخيرُ كُلُّه أن تُزوى عنك الدُّنيا، ويُمنَّ عليك بالقنوع، وتُصرفَ عنكَ وجوه الناس[2].

المُحَاسِبيُّ (ت: ٢٤٣هـ)

الزَّاهد العارف، أبو عبدالله، الحـارثُ بن أسد البغدادي المُحَاسِبِي، صاحبُ التصانيف الزُّهدية.

كان مِمَّا وصلَ إلينا مِن دَقِيقِ حِكْمَتِهِ، أنَّه قال[3]:

«جوهرُ الإنسانِ الفضلُ، وجوهرُ العقلِ التوفيق»

(1) نزهة الفضلاء: ٥٢٢.

(2) نفس المصدر السابق: ٩٧٤.

(3) نفس المصدر السابق: ١٠٠٧.

أبو العتاهيَّة (ت: ٢١١هـ)

رأسُ الشعراء، الأديبُ الصالحُ الأوحَد، أبو إسحاق إسماعيلُ بنُ قاسم ابن سُويد العنزيُّ، نزيل بغداد.

سارَ شِعْرُه لجودته وحُسنِه وعدمِ تَقَعُّره، وقد مَدَحَ أبو العتاهيَّة المهديَّ، والخلفاءَ بعده، والوزراء، ومِمَّا وصلَ إلينا من شعره في الحكمة، قوله:

إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجِدة ... مَفْسَدةٌ لِلمَرءِ أيُّ مَفسَدة
حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ القُوتُ ... ما أَكْثَرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
هيَ المَقادِيرُ فلُمني أَو فَذَرْ ... إنْ كُنتُ أخطأتُ فما أخطأ القَدَرْ

خَالِد بن مَعْدَان (ت: ١٠٣هـ)

وهو شيخُ أهل الشام، أبو عبدالله الكَلاعيّ الحمصيّ، وهو معدودٌ في أئمة الفقه، وله أقوالٌ في الحكمة تدلُّ رسوخ قدمه في العلم..

فعنه أنَّه قال: ما مِن آدميٍّ إلا ولَهُ أربعُ أعين: عينان في رأسه يُبصِرُ بهما أمرَ الدنيا، وعينانِ في قلبه يُبصِرُ لهما أمرَ الآخرة، فإذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً، فتح عينيه اللَّتين في قلبه، فأبصَرَ بهما ما وُعِد بالغيب، فأمِنَ الغيبَ بالغيب.

ومِن عُيون كلامه في الحِكمَة، ما رواه بَحِير بن سعد، قال: سمعتُ خالد بن مَعدان يقول: مَن التمسَ المحامد في مخالفةِ الحق، ردَّ الله تلك المَحامد عليه ذمًّا، ومَن اجترأ على المَلاوِم في مُوافقة الحق، ردَّ الله تلك المَلاوِم عليه حمداً[1].

الحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠هـ)

الإمام، الحافظ، العارف، الزَّاهد، أبو عبدالله، مُحَمَّد بن عَلِيِّ بن الحَسَن.

له حِكَمٌ ومواعظُ؛ منها قوله: **كفى بالمرءِ عيباً أنْ يَسُرَّه ما يَضُره.**

ومنها قوله: **صلاحُ خَمسةٍ في خمسة:**

صَلاحُ الصَّبِيِّ في المَكْتَب..

وصَلاحُ الفَتَى في العِلْم..

وصَلاحُ الكَهْلِ في المسْجِد..

وصَلاحُ المرأةِ في البَيْت..

وصلاحُ المؤذِنِ في السِّجْن[2].

---

(1) نزهة الفضلاء: ٥٥٢.

(2) نزهة الفضلاء: ١١١٩.

يَحْيَى بن مُعَاذ (ت: ٢٥٨هـ)

الرَّازِيُّ، الواعظ، من كبار المشايخ، له كلامٌ جيِّد، ومواعظ مشهورة.

مِن كلامه في الحكمة، أنَّ قال:

لستُ أبكي على نفسي إنْ ماتت، إنَّما أبكي على حاجتي إنْ فاتت[1].

وَهْب بن مُنَبِّه (ت: ١١٤هـ)

وهو أبو عبدالله الأبْنَاويّ، الأخباريّ القصصيّ، مولده في زمن عثمان رضي الله عنه، سنة أربع وثلاثين، ورحلَ وحجّ، وكان صاحبَ حِكْمَةٍ وفراسَة..

فعنه أنَّه قال: احفظُوا عنِّي ثلاثاً: **إيَّاكم وهوىً مُتَّبع، وقرين سَوْء، وإعجاب المرء بنفسه**[2].

مَيْمُون بن مِهْرَان (ت: ١١٧هـ)

الإمام الحُجَّة، عالِم الجزيرة ومُفتيها، له في طريق الحكمة إشراقاتٌ مضيئةٌ..

فعنه أنَّه قال: لا يكونُ الرجلُ تقياً حتَّى يكونَ لِنفسه أشدَّ محاسبةً

---

(1) نفس المصدر السابق: ١٠٦٦.

(2) نفس المصدر السابق: ٥٥٤.

مِن الشريكِ لشريكِه، وحتَّى يعلَمَ مِن أين مَلْبَسُهُ ومَطْعَمُهُ ومَشْرَبُهُ.

ومن إشراقاته في الحِكْمَة، ما رواهُ جامع بن أبي راشد، قال: سمعتُ ميمونَ بن مِهْران يقول: **ثلاثة تُؤَدَّى إلى البَرِّ والفَاجِر: الأَمَانَة، والعَهْد، وصِلَةُ الرَّحِم.**

وقال أبو المليح: جاء رجلٌ إلى ميمونَ بن مِهْران يخطب بنتَه، فقال: لا أرضاها لك، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّها تُحِبُّ الحُلِيَّ والحُلَل، قال: فعندي مِن هذا ما تُريد، قال: الآن لا أرضاكَ لها[1].

مُعَاوية بن قُرَّة (ت: ١١٣هـ)

الإمامُ العالِمُ الثَّبت، أبو إياس المُزَني البصري، والِد القاضي إياس، وله في الحِكْمَةِ أقوالٌ مأثورة..

فعنه أنَّه قال: **لا تُجَالِسْ بعِلمكَ السُّفهاء، ولا تُجَالِسْ بِسَفَهِكَ العُلَمَاء.**

مُحَمَّد بن مُسْلِم الزُّهْرِي (ت: ١٢٤هـ)

الإمامُ العَلَم، حافظ زمانه، أبو بكر القُرَشِيّ الزُّهْرِيّ المَدَنِيّ، نزيل الشام، كان يُقال: الزُّهْرِيُّ في التابعين كأبي هُرَيْرَةَ في الصحابة[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: ٥٨٤.

(2) التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات، إبراهيم بن عمر السكران، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص ١٨٢.

ومِن أقواله المضيئة في الحِكْمَة، ما رواهُ ابن شهاب، قال الزُّهْرِي: **العَمَائِمُ تِيجَانُ العَرَب، والحَبْوَةُ حِيطَانُ العرب**[1]، **والاضطجاعُ في المسجدِ رِبَاطُ المؤمنين**[2].

أبو العَبَّاس السَّفَّاح (ت: ١٣٦هـ)

وهو عبدالله بن محمد بن عليّ ابن حَبْر الأمَّة عبدالله بن عَبَّاس، أول الخلفاء من بني العَبَّاس..

من كلامه في الحِكْمَة: إذا عظمت القُدْوَة، قَلَّتِ الشَّهوة. قَلَّ تبرُّعٌ إلا ومعه حقٌّ مُضاع، الصبرُ حسن إلا على ما أوتَغَ[3] الدين وأوهَنَ السُّلطان[4].

سَلَمَة بن دِينَار (ت: ١٤٠هـ)

الإمامُ القُدوة، أبو حازم المدينيّ، المخزوميّ، شيخ المدينة النبوية، وُلد في أيام ابن الزُّبَيْر وابن عُمَر.

---

(1) الحَبْوَة: أن يُقِيم الجالسُ ركبتيه ويقيم رجليه إلى بطنه بثوبٍ يجمعهما به مع ظهره، ويشد عليهما، قد شُبِّهت هذه الجلسة بالحيطان؛ لأنَّها وصفٌ للاحتباء في البراري التي هي بلا حيطان، فإذا أرادوا أن يستندوا احتبوا؛ لأنَّ الاحتباء يمنعهم من السقوط ويصيرُ لهم كالجدار.

(2) نزهة الفضلاء: ٦١٢.

(3) أوتغ: أفسد وأهلك.

(4) نزهة الفضلاء: ٦٣٩.

من كلامه في الحِكْمَة: **ليسَ للمُلُوكِ صَدِيق، ولا للحَسُودِ رَاحَة، والنَّظَرُ في العَوَاقِب تَلْقِيح العُقُول**[1].

وهنا لحظتُ تأثُّر صاحبنا الفارسي بهذه الحِكمَة، فتوقفتُ لسؤاله عن سبب هذا التأثُّر، فإذا به يذكرُ أنَّ يحيى بن خالد البرمكي (ت: ١٩٠هـ) كان مِن أشدِّ الناسِ فِقهاً لهذه الحقيقة التي حَوَتْها حِكمَة سَلَمَة بن دِينَار؛ حيث كان يخشى من متانة العلاقة بين الخليفة الرشيد وبين ابنه جعفر، فقد كانت كلُّ الفوارق زائلة بين الرجلين، فكان مما قاله يحيى لابنه جعفر: «إنِّي إنَّما أهملتُك ليعثرَ الزمان بك عثرةً تعرف بها أمرك، وإنْ كنتُ أخشى أن تكونَ التي لا شروى لها»، ثم لَمَّا كَبُرَ الهاجس في نفسه؛ قال للرشيد: «يا أمير المؤمنين! أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، لستُ آمن أن ترجع العاقبةُ في ذلك عليَّ منك، فلو أعفيته واقتصرتَ به على ما يتولاه من جَسِيمِ أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي، وآمن لك عليّ، فقال الرشيد: يا أبتِ ليس بك هذا»، ثم بكى صاحبُنا وقال: لقد كان يحيَى يفقهُ معنى أنَّ المُلْكَ عقيم؛ فهو الذي كان يقول: «لا أرحامَ بينَ المُلُوك وبينَ أَحَد»[2].

(1) نفس المصدر السابق: ٦٤٣.

(2) العباسيون الأقوياء: ٤٣٩.

خَالِد بن صَفْوَان

ابنُ الأهْتَم، البليغ فصيحُ زمانه، أبو صفوان المِنْقَريّ الأهْتَميّ، وقد وفد على عمر بن عبدالعزيز.

مِن كلامهِ في الحكمة:

ثلاثةٌ يُعرفُونَ عند ثلاثةٍ: الحَليمُ عند الغضب، والشُّجَاعُ عند اللقاء، والصديقُ عند النَّائِبَة.

ومِن كلامهِ أيضاً، وقد سُئِل، أيُّ إخوانك أحبُّ إليك؟

قال: **الذي يغفرُ زَلَلِي، ويقبلُ عِلَلِي، ويسدُّ خَلَلِي**[1].

يُونُس بن عبيد (ت: ١٤٠هـ)

ابن دينار الإمام القُدوة، أبو عبدالله العبديّ، من صغار التابعين وفضلائهم.

من بديع كلامه في الحِكْمَة: ما رواهُ ابنُ شَوذَب، قال: سمعتُ يُونُسَ، يقول: **خِصْلَتَانِ إذا صلحتا مِنَ العَبد، صَلُحَ ما سِوَاهُمَا: صَلاتُه ولِسَانُه**[2].

---

(1) نزهة الفضلاء: ٦٥١.

(2) نفس المصدر السابق: ٦٦١.

عبدالله بن شُبْرُمَة (ت: ١٤٤هـ)

الإمام العلامة، فقيه العراق، أبو شُبْرُمَة، قاضي الكُوفَة.

مِن جميلِ ما قاله في الحِكْمَة: **مَنْ بالغَ في الخُصُومَة أَثِم، ومَنْ قصر فيه خصم. ولا يطيق الحق مَن بالى على مَن دارَ الأمر.**

وروى ابنُ المبارك عنِ ابن شُبْرُمَةَ، قال: عجبتُ للناس يحتمونَ من الطعام مخافةَ الدَّاء، ولا يحتمونَ من الذنوب مخافةَ النَّار[1].

أبو عمرو بن العلاء (ت: ١٥٤هـ)

ابن عمار، التميميّ، ثم المازنيّ البصريّ، شيخ القراء والعربية، وكان مِن أشرافِ العرب.

قال أبو عبيدة: كان أعلمَ الناسِ بالقراءات والعربية، والشعر، وأيام العرب، وكانت دفاتره ملءَ بيتٍ إلى السقف!، ثم تنسَّك فأحرقها.

من كلامِهِ في الحِكْمَة: ما رواهُ الأصمعيُّ، قالَ لِي أبو عَمْرو:

كُن على حذرٍ من الكريمِ إذا أهنتَه، ومِنَ اللَّئيمِ إذا أكرمتَه، ومِنَ العاقلِ إذا أحرجتَه، ومِنَ الأحمقِ إذا مازحتَه، ومِنَ الفاجرِ إذا عاشرتَه، وليسَ مِنَ الأدبِ أن تُجيب مَن لا يسألُك، أو تسأل مَن لا يُجيبك، أو تُحدِّث مَن لا ينصت لك[2].

(1) نفس المصدر السابق: ٦٦٤.

(2) نزهة الفضلاء: ٦٧٦.

إبراهيم بن أدهم (ت: ١٦٢هـ)

ابن منصور، القدوة الإمام العارف، سيِّد الزُّهَّاد، أبو إسحاق العِجليّ، نزيل الشام.

وقد وَرَدَ في خبرِ توبته، ما رواهُ يُونُس البلخيّ، قال: كان إبراهيمُ بنُ أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثيرَ المال والخدم، والمراكب والجنائب والبُزاة، فبينما إبراهيم في الصَّيد على فرسه يُركضه، إذا هو بصوتٍ مِن فوقه: يا إبراهيم ما هذا العَبَث؟ ﴿**أَفَحَسِبتُم أَنَّما خَلَقناكُم عَبَثًا**﴾ (المؤمنون: ١١٥)، اتَّقِ الله، عليكَ بالزَّاد ليومِ الفَاقَة، فنزلَ عن دابته، ورفضَ الدُّنيا.

ومن بديعِ كلامهِ في الحِكْمَة، أنَّه قال:

كلُّ مَلِكٍ لا يكونُ عَادِلاً، فهو واللصُّ سَوَاء..

وكلُّ عَالِمٍ لا يكونُ تقياً، فهو والذِّئب سَوَاء..

وكلُّ مَنْ ذَلَّ لغيرِ الله، فهو والكلبُ سَوَاء[1].

دَاود الطَّائي (ت: ١٦٢هـ)

الإمامُ الفقيه، القدوة الزَّاهِد، أبو سُليمان، دَاود نُصَير الطَّائِيّ، الكُوفِيّ، أحد الأولياء.

---

(1) نفس المصدر السابق: ٧٢٢.

كان مِن كبار أئمة الفقه والرأي، برعَ في العلم بأبي حنيفة، ثمَّ أقبلَ على شأنه، ولَزِمَ الصَّمْت، وآثرَ الخمول، وفَرَّ بدينه، وكان رأساً في العلمِ والعمل.

قال له رجل: أوصِنِي، قال: اتَّقِ الله، وبِرَّ والديك، وَيْحَك! صُمِ الدُّنيا، واجعل فطركَ الموت، واجتنبِ النَّاس غيرَ تاركٍ لجماعتهم.

ومن كلامه في الحكمة، أنَّه قال: **كَفَى باليَقِينِ زُهْداً، وكَفَى بالعِلْمِ عِبَادَة، وكَفَى بالعِبَادَةِ شُغْلاً**[1].

عبدالله بن المُبَارَك (ت: ١٨١هـ)

ابن واضح، الإمامُ شيخُ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبدالرحمن الحَنْظَلِيّ.

كان ابن المُبارك يُكثر الجلوسَ في بيته، فقيلَ له: ألا تستوحِشُ؟

فقال: كيف استوحشُ وأنا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه؟!

ومِن بليغ ما وَصَلَنَا مِن حِكْمَتِه، أنَّه سُئِل: مَنِ النَّاسُ؟ فقال: العلماء..

قيل: فَمَن الملوك؟ قال: الزُّهَّاد..

قيل: فَمَن الغَوْغَاء؟ قال: خُزيْمَة وأصحابُه - يعني مِن أمراء

(١) نزهة الفضلاء: ٧٢٦.

الظَّلمة -.

قيل: فَمَن السَّفلة؟ قال: الذين يعيشون بدينهم[1].

وكان ابن المُبارك يعجب مِمَّن يقنع بأدنَى الدِّين، ولا يرضَى بعيشِ الدُّون!، فيقول[2]:

أرىَ رِجالاً بِدونِ الدِّينِ قَدقَنَعُوا وَلا أرَاهمْ رَضُوا فِي العَيْشِ بِالدُّونِ

كما كان يرى أنَّ مِنَ الحِكْمَة: تدبُّر الأمور والإعداد لساعةِ الرحيل التي لابدَّ منها، فيقول[3]:

المَـرءُ مِثلُ هِلالٍ عِندَ رُؤيَتِهِ يَبدُو ضَئِيلاً نَـرَاهُ ثُمَّ يَتَّسِقُ
حَتَّى إِذَا مَا تَـرَاهُ تَمَّ أعقَبَه كَرُّ الجَدِيدَينِ نَقْصًا ثُمَّ يَمَّحِقُ

ثمَّ يعجب من بكاء الأحياء على الأموات، ويرى أنَّ الأحياء جديرونَ بالبكاءِ على أنفسهم؛ لأنَّهم ليسوا أبقى مِن هؤلاء، كما أنَّ مصيرَ الجميع الفناء، والسبيلُ واحدة[4]:

أَرَى النَّاسَ يَبْكُونَ مَوتَاهمُ وَمَا الحَيُّ أبقَى مِن المَيِّتِينا!

---

(1) نفس المصدر السابق: ٧٨٥.

(2) القيم الجمالية في شعري الإمامين ابن المبارك والشافعي، أ.د. مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص ٣٨.

(3) نفس المصدر السابق.

(4) نفس المصدر السابق.

أَلَيسَ مَصِيرُهُمْ لِلفَنَا؟ وإنْ عمَّرَ القَومُ أيضاً سِنينَا
فإنْ كُنتِ تَبكِينَ مَن قَد مضَى فَبكِّي لِنفسِكِ فِي الهَالِكِينَا
فَإنَّ السَّبيلَ لَكمْ وَاحِدٌ سَيَتبِعُ الآخِرُ الأَوَّلِينَا

سُفْيَان بن عُيَيْنَة (ت: ١٩٨هـ)

ابنُ أبي عِمران، مَيمُون مولى مُحَمَّد بن مُزَاحِم، الإمام الكبيرُ حافظُ العصر، شيخُ الإسلام، أبو محمَّد الهِلاليّ الكوفيّ، ثمَّ المكِّيّ، مولده بالكوفة، في سنة سبع ومئة.

قال الإمام الشافعيُّ: لولا مَالِكُ وسُفْيَانُ بن عُيَيْنَة، لذهبَ علمُ الحِجَاز.

ومِمَّا وصلَ إلينا من حكمته، ما رواهُ عبدالرحمن بن بِشْر، قال: سمعتُ ابن عُيَيْنَة يقول:

غَضَبُ الله الدَّاءُ الذي لا دَوَاءَ له، ومَن استغنَى بالله، أحوجَ اللهُ إليه النَّاس[1].

وعن سهل بن راهويه أنَّه قال: قلتُ لِسُفيَان بن عُيَينَة: أمَا ترى إلى الفُضَيل بن عياض ما تكاد تجفُّ له دَمعَة؟ قال سُفيَان: كان يقال: **إِذَا قَرِحَ القَلْبُ نَدِيَت العَيْنَان**[2].

(1) نزهة الفضلاء: ٨٠١.

(2) المجالسة وجواهر العلم: ٤٦٣.

القَاضِي أبو يُوسُف (ت: ١٨٢هـ)

هو الإمـامُ المجتهد، العلامة المحدِّث، قاضي القضاة، أبو يوسف، يعقوبُ بن إبراهيم بن حَبيب، الأنصاريُّ الكوفيّ.

كان الإمام أبو حنيفة قد فرَّغ تلامذته للعلم دونَ سواه، ومنعهم مِن أن يمارسوا أعمالاً أخرى في الصناعات والحِرَف، فأجرى لهم رواتب شهرية، وفي مقدِّمتهم أبو يُوسُف الذي نشأ في بيتٍ فقير، وأرادَ أبواهُ أن يصرفاه عمَّا هو فيه من طلب العلم، فقام أبو حنيفةَ بِسَدِّ حاجته وحاجتهما من المال!.

كان أبو يُوسُف مِمَّن وَرِثوا حكمة أبا حنيفة رحمه الله، ومن كلامه في ذلك، ما رواهُ بِشْر بن الوليد، قال: سمعتُ أبا يُوسُف يقول:

مَن طلبَ المالَ بالكيمياء، أفلَس..

ومَن طلبَ الدِّينَ بالكلام، تزندق..

ومَن تتبَّعَ غريبَ الحديث، كُذِّب[1].

(1) نزهة الفضلاء: ٨٠٦.

رُوَاق الخِزَانَةِ

دَلَفنا إلى الرُّواق المفضَّل إلينا، حيث نستطيع الاطلاع على بقيةٍ من علوم الأوائل والأواخر، وقد لاحظْنا قَيِّم الخِزَانة منحنياً على دفترٍ ضخم بين يديه يكتبُ فيه ويمحو، فألقينا عليه تحية الإسلام، فردَّ علينا وأعطى دفتره إلى أحد الغِلمان بجواره، ثمَّ رحَّب بمقدمنا وأجلسنا عن يمينه.

وقد أطلعنا الرحَّالةُ على مجموعةٍ عظيمةٍ من الدفاتر المزيَّنة بما يُشبه الجواهر المرصَّعة، وإذا بها دواوين تحوي أشعاراً لكبار رجالات الفصاحة والبيان في العصرَين الجاهلي وصدر الإسلام، فبادرته بالسؤال عن أشعَر العرب الذين شَرَّق شعرهم وغرَّب؟ فقال على الفَور: «زهير إذا رَغِب، والنَّابِغَة إذا رَهِب، وامرؤ القيس إذا طَرِب، وعنترة إذا رَكِب، والأعشى إذا شَرِب»، ثمَّ تابَعَ بأنَّ في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عُسْرٌ لا يُؤمَنُ معه الزَّلل، واستشهدَ بما قاله النَّابِغَة في الفخر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم بِهِنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائب

وبما قاله زُهَير في المديح، وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله:

وإنْ يَكُ مِن خيرٍ أتوه فإنَّما تـوارثـه آبـاء آبائهم قبلُ

وهنا استوقفه صاحبي بالسؤال عن الشعراء الإسلاميين المتقدِّمين، فرفعَ الرجلُ يده إلى الأعلى مشيراً إلى عُلُوِ مكانتهم التي يُسامون فيها أهل الجاهلية، ثم عدَّد منهم الأَحْوَص، وذِي الرُّمَّة، وحَسَّان بن ثَابِت، وعُمَر بن أبي رَبِيعَة، والقَطَّامِي، وجَرِير، والفَرَزدَق، والأَخْطَل، وجميل، وكُثَيِّر، فإنَّ لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجد إلا في شعر البُلغاء من الجاهليين[1].

وعندما نظرتُ قُدَّامي رأيتُ ثلاثة من أسماء الشعراء العباسيين قد نُقشت أسماؤهم بمدادٍ من فضة، وهم أبو العتاهية، وأبو نوَّاس، ومُسلم بن الوليد، إذ كانوا أشعر أهل ذلك الزمان وأقربهم مجلساً من خلفاء الدولة العباسية.

دواوين القَصَص

ولَمَّا كانت دواوينُ الشعراء في مقابل الداخل إلى الرُّواق، فإنَّ دواوين القَصَص كانت على مقربةٍ منها، وقد بدأوا بكتابٍ هندي يقالُ له «**كليلة ودمنة**» عرَّبه **ابن المقفَّع** (ت: ١٤٢هـ)، حيث فصَّل لنا صاحبُنا أنَّه يتضمَّن حكاياتٍ وُضعت على لسانِ البهائمِ والطَّير، وفيه إشارةٌ إلى سلائقها من الحِلم والمكر والجراءة والجُبن والتيقُّظ

(١) حضارة الإسلام في دار السلام: ١٧٤ - ١٧٥.

والذُّهول والعَقل والحُمق، إلى آخر هذه السلائق؛ لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة؛ لأنَّه يستخرج من الأقوال الهزلية ضُروباً من الحِكمَة البليغة.

وقد وضعَ ابن المقفَّع في أول ترجمته فضلاً سمَّاه «**باب غرض الكتاب**» وأودعه مِن صنوفِ البلاغة والحِكمَة ما ضارعَ به سائر أبواب الكتاب، وذكر أنَّ أغراض واضعه «بيدبا» الفيلسوف تنقسمُ إلى أربعة؛ **فالأوَّل**: ما قصد إليه من وضعه على ألسنه البهائم ليُسارع أهل الهزل إلى قراءته، **والثاني**: إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أُنساً لقلوب الملوك، **والثالث**: أن يشتد الحرصُ عليه للنزهة في صُوَرِه؛ فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل، **والرابع**: مخصوص بالفيلسوف خاصَّة، وهو الغرض الأقصى.

ثمَّ تابعَ الرحَّالةُ حديثه بأنَّ الأدباء لَمَّا رأوا إقبالَ الناس على **كليلة ودمنة**؛ تسارعوا إلى تعريب غيره من غير كتب السِّير والخرافة، فترجموا كتاب «**وزره وشماس**» وفيه أخبار ملوك الهند وبناتِهم، وما يتخلَّلها من الأمثال التي توسِّع العقول أدباً مع فكاهةٍ وترويض أفكار، وترجموا عن الفارسية كتاب «هزار أفسان» وسمَّوْه **ألف ليلة وليلة**، ومعنى «هزار أفسان»: ألف خرافة؛ وكان السبب في وضعه أنَّ مَلِكاً من مُلُوك الفُرس كان إذا تزوَّج امرأة قتلها بعد يومٍ غَيْرةً

عليها من الرجال، فتزوَّج بجاريةٍ من بنات الملوك ممن لهنَّ عقل ودراية يُقال لها «شَهرزاد»، فلمَّا اتَّصلت به أخذت تُحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أنْ أتى عليها ألفُ ليلةٍ وليلة، وإلى أنْ رزقه الله منها بولدٍ طرحتْه إليه، ووقفتْه على حيلتها عليه. وكان للملك قهرمانةٌ[1] يُقال لها «رسازاد» أو «دينار زاد»، كانت موافقةً لها على ذلك، وفي هذا الكتاب دون المائتي سَمَر؛ لأنَّ كلَّ سَمَرٍ كان يحدِّث به في ليالٍ عدة، وهي من أظرف الحكايات التي وضعتْها الفُرس في غابر الدهر.

ولمَّا راجَ سوقُ هذا الكتاب تداوله النُّساخ والكُتَّاب وأضافوا إليه حكاياتٍ كثيرة وضعوها على سبيل الفُكاهة بما يُعهد فيهم مِن طولِ الباع في وضع الحكايات، ولا سيما ما يتضمَّن أخبار الجان ووصفِ مَساكِنِهم تحت البِحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الإنس وقصص العفاريت والهواتف، وغير ذلك إلى أنْ صارَ جملة ما في الكتاب حكاياتٍ عربية لا يُخالطها من كلام الفُرس إلا القليل، وهي

(1) قَهْرَمَان/ قُهرمان/ قَرْهمان: الخازن، الوكيل، رئيس الخدم، صاحب الحكم الآمر، المسيطر الحفيظ على مَن تحت يده، مِن أُمناء الملك وخاصته، القائم لأموره، وأصلها فارسيٌّ من «قَهْرمان»: وهي مركَّبةٌ مِن «قهر» العربية، و«مان» الفارسية وتعني: صاحب. انظر: المعجم المفصَّل في المعرَّب والدَّخيل: ٣٨١.

وإنْ كانت بعيدةً عن الصدق تُظهِر فضلَ العربِ في أنَّهم يمتلكون فؤادَ السَّامِع، برقَّة مأخذهم في تجميلِها ورونقِها.

وإجماع الرأي على أنْ ليس في حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطفُ صنعاً؛ فإنَّ فيها مِن الوصفِ البارع، والتمثيلِ السَّاطع، ما ينطقُ بفضلِ العرب فيما تطرَّقوا إليه مِن وصفِ معايشِ الناس وأخلاقِهم، وما يتقلَّبون فيه مِن الأحوالِ التي توسَّعوا في وصفها، إلى أدبٍ جزيلِ الفائدة.

فأمَّا الحكايات التي ذكروا وقوعها في الإسلام؛ فلا تبعد عن الأحوال التي تحدث ببغداد في أكثر الأيام، اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال؛ لنكتةٍ يشوِّقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك، مثل حكاية الخليفة الثاني وحكاية الخليفة والصيَّاد، إلى حكاياتٍ غيرها يظرِّفون بها الخبر عن الرشيد وجعفر[1].

وأمَّا الحكايات التي زعموا أنَّها وقعت في قديمِ الزمان وسالفِ العصرِ والأوان؛ فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق، وإنما أقبَلَ خَلْق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأُمم عنهم بحيث يتعذَّر عليهم معرفة غثِّها من سمينها؛ ولأنَّ ناقلَ الرِّواية كان يُحدثهم بأنَّ كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان

(1) هو: جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي (ت: ١٨٧هـ).

البعيدة الشُّقَّة، المتفاوتة السبيل، فلو حدَّثهم بأنَّ في الشام مدينة من النحاس، أو بالعراق بلداً صار غديراً ثمَّ انقلبَ ماؤه إلى عمارة وأسماكه إلى أُناس ما صدَّقوا كلامه؛ لأنَّهم يطرقون هذه البلدان كلَّ يوم وعهدهم بها على غير انقطاع، وإنَّما نُقِل إليهم أنَّ ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب؛ لأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوَّقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس، وهم بمكانهم من عيش البداوة.

ثم أخذَ الرحَّالةُ في استعراضِ ما حلا له مِن حكاياتِهم؛ فأشار إلى **حكاية السندباد** التي تشتملُ على الحوادث التي وقعت له في أسفارٍ سبعة، أتى عليها جميعاً في طلب المال، وفي كلِّ سفرةٍ عجيبة لم يسمع أحدٌ بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مَشقَّةً عظيمة لاستنباط الحِيلَة فيها على وجوهٍ تدفع الناسَ إلى ركوب الأخطار لنَيلِ العُلا والفَخار، بما تمتلكُ به أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر، وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد.

وقد ظهرَ لنا من حديثه أنَّ هذه الحكايات السندبادية وُضِعَت من قِبَلِ رجلٍ قد عانى الأسفار، وتقلَّب على متون البحار، حتى عرفَ ما بالأمصار، من عجائب الآثار وغرائب الأخبار[1].

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ١٩٤ - ١٩٧.

ركن علوم الفلسفة

اصطَحَبا الرحَّالةُ في جولةٍ إلى رُكنِ العلوم الفلسفية، وهي تلك العلوم التي راجتْ في ذلك الزمن رَواجاً كبيراً، ثمَّ أخذَ يشيرُ إلى أنَّ هذه العلوم كانت مجهولةً في صدر الإسلام، بل في صدر الدولة العباسية، إلا عندَ نفرٍ قليل من أهل الشَّام ممن جاوَرَ الرُّهبان وتلقَّى عنهم حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم بالأديار، أمَّا اليوم فإنَّا نجدها في سكان الأمصار من العراق ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية؛ لأنَّهم لا يُوجهون عنايتهم إلى العِلم، وإنما همتهم ارتيادُ المسارح والمزارع لحيواناتهم.

وهنا تقدَّم صاحبي بسؤالٍ عن: **أنواع هذه العلوم الفلسفية؟**

نظرَ الرحَّالةُ إلى الأعلى متدبِّراً ثم أومأَ بيدِه إلى الرقمِ أربعة، ثمَّ أخذَ يفصِّل أنّها تنقسمُ إلى:

فأمَّا **العلوم الرياضية**؛ وهي النِّجامة، والعدد، والهندسة، والغِناء؛ فإنَّهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للمتقدِّمين من أُمم الشرق، ثمَّ أشار إلى ما يقضي بفضل المنجمين من أهل الموصل وخُراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وأرصادها، وإلى ما يقضي بفضلهم في الغناء بما ابتدعه إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق من الأصوات الحِسان، فضلاً تتزيَّن به هذه الصناعة عند العرب.

كما نبغوا في العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة، وهي صناعة استخراج العدد المجهول من قِبَل المفروضِ المعلوم. أمَّا علمُ الهندسة؛ فقد كان مرجعهم فيه إلى كتابٍ لإقليدس المهندس من حكماء اليونان، وكتابٌ آخر لبطلميوس الذي أخرجَ الهندسة من القوةِ إلى الفعل، وقد عُرِّبت رسائلهما في خلافة المنصور، ثم أُعيدَ تعريبها في أيام الرشيد بمناظرة مهندسٍ يقال له أبو كامل، الذي جعل مقالات إقليدس في جلدٍ كبيرٍ سمَّاه «كتاب الأركـان»، وفيه خمس عشرة مقالة، ثم ألحقَ العربُ بهذا العِلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكُروية؛ وفيهما بحثٌ مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات، وألحقوا به أيضاً علم المخروطات نقلاً عن كتاب لأبولونيوس من اليونان أيضاً، فرفعوا ما يقع من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة، وأفادوا النجارة والبناء بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرِّها.

وأمَّا **العلوم المنطقية** ومنها: الشعر، والخطابة، والجَـدَل، والبُرهان، والمغالطة، وغير ذلك؛ فإنَّ إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم في العلوم الرياضية؛ لأنَّ طبائعهم ما تهيَّأت للعناية إلا بقولِ الشِّعر، فهو مَعدِن حكمتِهِم وديوان آدابهم والمقيِّد لمحاسن كلامهم، وقد بلغوا فيه الغايةَ التي لا مَطمح وراءها إلا ما كان من كلام النبوَّة، وإنْ كان شعر الجاهلية جافياً لمكانِ أهله من الخشونة ومقامهم في القَفْر بين الإبل والوحش والمنازل الخالية، فإنَّ شِعر المتمصِّرين ليس بخالٍ من رِقَّة الألفاظ وجمال الصور، وهُم القانطون بين فُرش الحرير، وأطباق الرياحين، وآلات الطرب، والقِيان، والنُّدماء.

ولقد نسمعُ عن أهل الأندلس أنَّهم يقولون شعراً أرقَّ من النسيم؛ وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جنَّاتهم وظهور ريح الصبا عندهم، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبلَ النسيم الذاهب إلى الغرب ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفح فيها الطيب عن غُصن أندلسها الرَّطيب، فيقول:

وإذا ما هبَّت الريح صَبًّا صِحْتُ: واشوقي إلى الأندلس

وديار الأعراب قَفْرٌ، وإقليمهم محرق للأبدان، ومجفف للعقول؛ وذلك مما لا يولِّد فيهم من رِقَّة القول وحلاوته ما نجده في شعر الأندلسيين.

وأمَّا **علوم المنطق**؛ في كان مرجعهم فيها إلى كُتب في المنطقيات لأرسطو الحكيم، عُرِّبت في خلافة المنصور بمناظرة عبدالمسيح الحِمصي، وهو من أشهر النَقَلَة بعد سلام الأبرش، وقد اشتملت على رسائل ثمانٍ؛ أربع منها في صورة القياس، وأربع في مادته، ورُبما زادوا فيها بعض شرحٍ وتفسير.

وأمَّا **علوم الخطابة والجدل والمغالطة**؛ فقد دوَّنوا مما استخرجوه من كُتب اليونان أسفاراً كثيرة، ولكن من غير تمحيصٍ يرجع بهم إلى محاسن العِلم إلا ابن العلاف خطيبُ هذا الزمان في رسالةٍ له في الخطابة بدأ فيها بذكر سحبان، وقُسِّ بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في الجاهلية والإسلام، إلى أنْ أتى على بيان القواعد التي تلزم الأُدباء في الخطابة؛ ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ وإكثار المعاني في قليلٍ من الكلام.

وأمَّا **العلوم الطبيعية**؛ وهي علم المبادئ وعلم السماء وما فيها، وعلم العالَم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب؛ فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبي جعفر، إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء، وهو النظر في المادة التي يتمُّ بها كون الذهب والفضَّة بالصناعة؛ فتوصَّلوا به إلى معرفة أمزجة المكوِّنات وحقيقة المعادِن والفضلات الحيوانية من

العظام والريش والبيض وغير ذلك، وكان الناس من أهل الأدب يَصبُون إلى هذه الصناعة بما في منوَّعاتِها وممزوجاتِها من تسلية الخاطر، مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة، حتى إنَّ الملوك أنفسهم كانوا يتمهَّرون في استخراج المركَّبات ومزجها على غير ترفُّعٍ عنها.

مِن نفائسِ الخِزانَة

كانت الخِزَانةُ في ذلك الوقتِ تضجُّ بالحركة؛ فطلابُ العِلم كانوا يتوافدون لزيارتِها كلَّ عامٍ في هذا التوقيت نظراً للَطافَةِ جوِّ بغداد، فكان القَيِّم مُنشغِلاً بضبطِ المكان لئلا تُفقد بعض الكتب أو يصيبها التلف نتيجة هذا التزاحُم، فهو يتابعُ الغلمان الذين يُناوِلونَ الطلبةَ الكتب ثم يقيِّدون أسماءهم في دفاتر خاصَّة بجوار أسماء الكتب التي طلبوا استعارتها أو الاطلاعَ عليها.

وفي هذا التوقيت، لَمَحَ صاحبي قطعةً جلدية بها كتابةٌ عربية، وقد عرفَ من نمط الخط أنَّها قديمة، فمدَّ يده إليها وسألَ القَيِّم الذي أخبره أنَّ ذلك الخط يعود إلى عبد المطَّلب بن هاشم، جدُّ النبيِّ ﷺ، وإذا مكتوبٌ عليها: «**هذا حقُّ عبد المطَّلب بن هاشم من أهل مكَّة على لبيد الحميري من أهل صنعاء، عليه ألف درهم فضةً كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه؛ شَهِدَ الله والمَلَكَان**»[1]، وقد أشارَ

(1) رواية «الحَدَقي»: ٣١٤.

القيِّم إلى أنَّ هذه الرسالة مما كان يعتزُّ به المأمون؛ لِمَا لها مِن صلةٍ بنَسَبِه وأصلِه[1].

علوم الأوائل

ولَمَّا رأى القيِّمُ عنايتنا بمثل هذه الرسائل التاريخية؛ وجدناه يُشيرُ إلى فضلِ التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها، والمساوئ التي ينبغي الاستنكاف منها والتنكُّب عن سبيلها.

حاوَلنا أنْ نبتعد بالقَيِّمِ قليلاً عن الضَّجيج الذي سادَ أرجاءَ المكانِ لنسأله عن ماهية **علوم الأوائل**؛ فبدأ كلامه بأنَّ هذه العلوم لم تكن رائجةً في عهود السابقين[2]، حتى وإنْ عرف آحاد الناس بعضاً منها، مثل اهتمام **خالد بن يزيد** بالكيمياء، فمثل هذه الاهتمام يظلُّ محدوداً ولم يُكتب له التوسُّع في الحركة العلمية آنذاك، ومن باب أولى لم ينشغل بها هؤلاء «الحشوية» في ذلك الزمان أو يصنِّفوا فيها أو يقولوا قولتهم فيها، بسبب إعراضهم عن العقل، ثمَّ لَمَّا جاءت أيام بني العبَّاس الزاهرة؛ تقدَّمت العلوم العقلية على إثرِ حركة الترجمة التي ملأت الآفاق وعمَّت الديار، وقد اشتُهرت عندنا بالعلوم الحِكمية لصدورها من معين الحِكمَة اليونانية الفاضلة.

(1) بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية: ٤١.

(2) يقصد عصر الدولة الأموية.

وهنا لاحظَ صديقي ما كان جارياً على أذهان ذلك الزمان من غلبة الفكر الاعتزالي، وهو الذي بدا لنا واضحاً من حديث القَيِّم؛ فهو الفكر الذي كان مسيطراً في هذه الأثناء على الحياة السياسية والثقافية في بغداد، فكان علماء المعتزلة أسرع الناس قبولاً للثقافات الأجنبية الوافدة، وقد وجدوا تأييداً كبيراً من الخلفاء العباسيين الذين احتفوا بهذه الأفكار، وليس أدلَّ على ذلك مِن وَصفِ القَيِّم لأهل الحديث بـ «الحشوية» على سبيل التهكُّم والازدراء.

وفي هذا السياق تذكرتُ أبياتاً قالها الإمام الشافعي على علاقةٍ بهذا الذي ذكره صديقي، فالشافعيُّ لم يحفَل بهذه العلوم التي بدأ انتشارُها في عصره على نطاقٍ واسع، فكان يقول[1]:

كلُّ العُلوم سِوى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ إلا الحديثَ وإلا الفقهَ في الدِّينِ
العلمُ ما كانَ فيه قال: (حدَّثنا) وما سوى ذاكَ وسواسُ الشَّياطينِ

تابعَ القَيِّمُ حديثه إلينا مبيِّناً أنَّ الحَكِيمَ لا يَمَلُّ مِنَ البحثِ عن الحِكمَة وتلقُّفِها مِن أيِّ إنسانٍ كان، فهو أحقُّ الناسِ بها، فإذا وجدَها التزمَها ولم تفارقْه، ولَمَّا كانت الكُتُب مِن أهمِّ موارد الحِكمَة، وجدناهُ قد تمثَّل قولَ القائل[2]:

(1) الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس، محمد أفندي مصطفى، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ص ٥٤، وانظر: ديوان الشافعي: ١٤٣.

(2) جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبدالبر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن

نعم المحدِّث والجليس كتاب تخلو به إنْ مَلَّكَ الأصحاب
لا مُفْشِياً سِرَّاً ولا متكبِّراً وتفاد منه حكمةٌ وصَــوَاب

كانت نظرتُنا لهذه الخِزَانَة العامرة شبيهةً بنظرةِ المنتصر إلى الغَنَائِم، فقد أخذْنا في التجوُّل بين جَنَباتِها المملوءة بالمجلَّداتِ الكِبَار في كلِّ فنون المعرفة، كما وجدنا القَيِّم يُشدِّد في حديثه على أهمية التجديد في اكتساب المعارف من شَتَّى أُمَمِ الأرض، وأنَّ هذا هو نهج الخليفة المأمون في سياسته لبيت الحكمة.

وفي أثناءِ ذلك عَلِمْنا بأنَّ هذه الخِزَانَة هي الجهة المنوط بها اقتناء الكُتُب من كلِّ حَدَبٍ وصَوْب، وتنظيمها على الرُّفُوف ومناولتها لمن يطلبها، ويُلحق بذلك قسم النَّسْخ والتجليد الذي كان يُناطُ به بطبيعة الحال استنساخ الكُتُب وتجليدها، وترميم ما يفسد مِمَّا هو موجود.

مصادر الخِزانَة

وهنا طرأَ لنا سؤالٌ بشأنِ طُرُق تزويد بيتِ الحِكمَة بالكُتُب؛ فأشارَ صاحبُنا إلى أنَّ هناكَ طُرُقاً كثيرة لذلك الغرض، منها:

* **الشِّرَاء**: حيث كان المأمون يُرْسِلُ بعثاتٍ إلى القُسطنطينية لإحضارِ الكتب أيًّا كان نوعها، وكان في بعض الأحوال يسافر هو بنفسه ويشتري الكتب ويُرسلها إلى بيتِ الحِكمَة.

الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص ١٢٣٠.

* **الاسْتِهْدَاء**: حيث كان الخلفاء يبعثونَ وفوداً إسلامية إلى الدول الأجنبية، فكانت تُهْدِيهِم مِنَ الكتب الموجودةِ لديهم.

* **الجِزْيَة**: حيث كان المأمون في بعض الأحيان يقبلُ الجِزْيَةَ مِمَّن تَجِبُ عليهم كُتُباً.

ثمَّ أخذَ يُشير إلى أنَّ المأمون كان قد أرسلَ إلى صاحب جزيرة قُبرص يطلبُ منه خزانة كتب اليونان، فوافق على إرسالها وأمر المأمون العلماءَ والمترجمين بترجمتها، وجعل سَهْل بن هارون خازناً عليها، فتصفَّحها ونَسَجَ على منوال كتبٍ منها، فصنَّف سَهْل كتاب «عفراء وثعلة» في معارضة كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «سيرة المأمون»، وغير ذلك[1].

وقد رُوِي أنَّ المأمون بعثَ إلى حاكم صقلية يطلب مكتبة صقلية الغنية بكُتُبها الفلسفية والعلمية ليضمَّها إلى خزانة بيت الحِكمَة، فأرسلَ الحاكم بها إلى المأمون حسب طلبه، وذكر أنَّ المأمون نقلَ من خُراسان إلى بغداد حمل مئة بعيرٍ من الكتب الخطيَّة النفيسة، فضمَّها إلى خزانة كتب بيت الحِكمَة.

وكان أحد شروط معاهدة الصلح بين المأمون وبين ميخائيل

---

(1) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال الدين بن نُباتة المصري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، لا يوجد سنة للنشر، ص ٢٤٣.

الثالث قيصر الروم أنْ يتنازل الثاني للأول عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية، وكـان بين ذخائرها الثمينة كتاب «بطلميوس» في الفلك، فأمرَ المأمون بنقله إلى اللغة العربية وسمَّاه «المِجَسْطي»[1].

ثمَّ خلُص القَيِّم في حديثه إلى أنَّ الاستهداء بين الملوك والخلفاء قد ساهمَ في تزويد بيت الحِكمَة ببعض الكتب النفيسة، كما حَفِظَ البيتُ أيضاً العديد من المصوَّرات والخرائط الجغرافية والفلكية التي ينتفعُ منها الجغرافيون والبحَّارة.

وفي أمرِ البِعثات؛ كَتَبَ الخليفةُ المأمون إلى مَلِكِ الرُّوم يسأله الإذنَ في إنفاذِ ما عنده من العلوم القديمة المخزونة الموروثة عن اليونان، وكانت تقاليد الروم وقتها تمنع من مطالعتها، ثمَّ أجابه إلى ذلك بعد امتناع، فجهَّز المأمون بعثةً علمية، وزوَّدها بنفرٍ من المترجمين، وجعلَ على رأسها المشرف على خِزَانَة بيتِ الحِكمَة، وتجوَّلت تلك البعثة في كثيرٍ من الأماكن المختلفة التي يُظَنُّ أنَّ فيها مخازن للكتب اليونانية القديمة، وعادت إليه بطرائف الكتب، وغرائب المصنَّفات في الفلسفة والهندسة والطبِّ والفَلَك، وغير ذلك من العلوم، كما راسَلَ المأمونُ باقي الملوك في عصره؛ يسألهم أنْ يسمحوا لبعثاته بالبحث والتنقيب عن الكتب في المخازن القديمة.

(1) بيت الحكمة البغدادي وأثره العلمي: ٤٢.

ومِن أطرفِ ما حَكَاهُ لنا قَيِّمُ الخِزَانَة؛ أنَّ إحدى هذه البعثات العلمية وَجَدَتْ تحت حصنٍ قديمٍ ببلادِ فارس صناديق، بها كُتُبٌ كثيرة قد تعفَّنَتْ حتى فاحَت منها رائحةٌ نَتِنَة، فأخذها رجالُ البِعْثَة، وحملوها إلى بغداد وبَقِيَتْ حَوْلاً كاملاً حتى جَفَّتْ وتَغَيَّرَتْ، وزالت الرائحة عنها، ثمَّ أقبلوا بعد ذلك على دراسةِ ما فيها[1]!.

وَصَايَا أَبِي تُرَاب

لَفَتَ انتباهَنا وجودُ مجموعةٍ مِنَ الكَوَاغِيدِ[2] التي كُتِبَ عليها «**وَصَايَا أَبِي تُرَاب**»، وهي بعضُ الوَصَايَا والحِكَم التي تعودُ إلى أميرِ المؤمنينَ عَلِي بن أَبِي طَالِب ﷺ الذي يُكَنَّى بأَبِي تُرَاب، وقد خَطَّها أَحَدُ الكُتَّابِ المَهَرَة بالخِزَانَة، فقرأَ علينا القَيِّمُ بعضاً مِن تلكَ الوَصَايَا النَّفِيسَة[3]:

* احفَظُوا عَنِّي خَمْساً؛ فَلَو رَكِبْتُم الإبِلَ فِي طَلَبِهِنَّ لأَنْضَيْتُمُوهُنَّ[4] قَبلَ أنْ تُدْرِكُوهُن:

(1) ماذا قدَّم المسلمونَ للعالَم: إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية، د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ج ١/ ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(2) الكَوَاغِيد: جمع كَاغِد، وهو الوَرَق الذي يُكتبُ عليه. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(3) علي بن أبي طالب: أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين: ١٦٣ - ١٦٦.

(4) أَنْضَى فلانٌ: كانت دوابُّه هزيلة. انظر: المعجم الوسيط: ٩٢٩.

لا يرجُو عَبدٌ إلا رَبَّه، ولا يَخَافُ إلا ذَنْبه، ولا يَسْتَحْيِي جَاهِلٌ أنْ يَسألَ عَمَّا لا يَعْلَم، ولا يَسْتَحْيِي عَالِمٌ إذَا سُئِلَ عَمَّا لا يعلَم أنْ يقُول: اللهُ أعلَم، والصَّبرُ مِنَ الإيمَانِ بِمَنزِلَةِ الرَّأسِ مِنَ الجَسَد، ولا إيمَانَ لِمَن لا صَبرَ لَه.

* مَنْ نَظَرَ في عَيْبِ نفسِهِ اشتَغَلَ عن عَيْبِ غَيرِه، ومَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ الله لَمْ يَحْزَن عَلَى مَا فَاتَه، ومَنْ سَلَّ سَيفَ البَغْيِ قُتِلَ بِه، ومَنْ كَابَدَ الأُمُورَ عَطِب، ومَنْ اقتحَمَ اللُّجَجَ غَرِق، ومَن دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِم.

ومَنْ كَثُرَ كَلامُه كَثُرَ خَطَؤُه، ومَنْ كَثُرَ خَطَؤُه قَلَّ حَيَاؤُه، ومَنْ قَلَّ حَيَاؤُه قَلَّ وَرَعُه، ومَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُه، ومَنْ مَاتَ قَلْبُه دَخَلَ النَّار.

ومَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيرِهِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِه؛ فَذَلِكَ الأَحْمَقُ بِعَيْنِه.

* الفُرْصَة تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب؛ فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الخَيْر.

* مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إلا ظَهَرَ مِنْ فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِه.

* مَنْ غَلَبَ لِسَانَهُ أَمَّرَهُ قَوْمُه.

* مَنْ هَتَكَ حِجَابَ غَيْرِه؛ انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِه.

* الدُّنْيَا طَوَّاحَةٌ طَرَّاحَةٌ فَضَّاحَةٌ آسِيَةٌ جَرَّاحَة.

* أَنْفِقْ فِي حَقٍّ؛ وَلا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِك.

أُعجِبْنا غَايَةَ العَجَب مِن هذهِ الوَصَايَا النَّفِيسَة لأميرِ المؤمنينَ ﷺ، وهي تعبِّر عن عناية القائمينَ على هذه الخِزَانَة، بأهلِ الفصاحةِ والبيانِ منذ عهد الخلفاء الراشدين، وقد كُتبت بخطٍّ يخلبُ الأنظار ويُحقِّق المتعة للنفوس الباحثة عن الجمال، فـ «**الخطُّ خيطُ الحكمة، ينظم فيه منثورها، ويُفصَّل فيها شذورها**»[1].

وبعد قراءته علينا لهذه الوصايا النفيسة، رأى صديقي لوحةً قد كُتِبَت بخطٍّ جميل وعُلِّقت في إحدى أركانِ الخِزَانَة، وعليها: «**مَنْ خَالَطَ العُلَمَاءَ وُقِّر، وَمَنْ خَالَطَ الأَنْذَالَ حُقِّر**»[2]، فأفادَنا القَيِّم بأنَّ هذه اللَّوحَة كُتِبَت بِخَطِّ أحدِ وُزَراء المأمون، ويُدعَى: مُحَمَّد بن دَاوُد.

ثمَّ حَكَى لنا أنَّ الخليفة المأمونَ قد رآهُ يوماً..

فقالَ: يا مُحَمَّد، إنْ شاركتَنَا في اللَّفْظ، فقد فَارقنَاكَ في الخطّ..

فقالَ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ مِن أعظمِ آياتِ النبيِّ ﷺ أنَّه أدَّى عَنِ

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ١٠٣.

(2) علي بن أبي طالب: أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين: ١٦٥.

الله سبحانه وتعالى رسالتَه، وحَفِظَ عنه وَحيَه، وهو أمِّيٌّ لا يعرفُ من فنونِ الخطِّ فَنًّا، ولا يقرأُ مِن سائرِهِ حَرفاً، فبقي عمودُ ذلك في أهله، فهم يَشرُفون بالشَّبَه الكريم في نَقص الخط، كما يشرفُ غيرُهم بزيادته؛ وإنَّ أميرَ المؤمنين أخصُّ الناسِ برسول الله ﷺ، والوارثُ لموضعه، والمتقلِّد لأمره ونهيه؛ فَعلِقَت به المشابهةُ الجليلة، وتناهَتْ إليه الفضيلة.

فقالَ المأمون: يا مُحَمَّد، لقد تركتني لا آسَى على الكتابة، ولو كنتُ أمِّيًّا[1].

وكان مكتوباً على تلك اللَّوحَة: «**الكُتُبُ أَصْدَافُ الحِكَم، تَنْشَقُّ عَن جَوَاهِرِ الكَلِم**»[2].

التصنيف عند العرب

وبِمَا أنَّنا مُتَواجِدُونَ في خِزَانةِ بيتِ الحِكمَة، فقد شرعتُ في السؤال عن البداية الأولى لتصنيف الكتب عند العرب الأوائل..

فكان الجواب بأنَّ **عُبَيْد بن شَرِيَّة الجُرْهُمِي** (ت: نحو ٦٧هـ) هو أول مَن صنَّف الكتبَ من العرب، وقد ذُكِرَ في ترجمته أنَّه مِنَ

(1) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/ ٩٥ - ٩٦.

(2) نفس المصدر السابق: ١/ ١٨٦.

الحُكَماء الخُطَبَاء في الجاهلية، أدرَكَ النبيَّ ﷺ، واستحضرَهُ معاوية بن أبي سفيان من صنعاءَ إلى دمشق، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم، فحدَّثه، فأمر معاوية بتدوين أخباره، فأملَى كاتبين سُمِيَ أحدهما «**كتاب الملوك وأخبار الماضين**»، والثاني: «**كتاب الأمثال**»، وعاش إلى أيام عبدالملك بن مروان»[1].

ثمَّ أعقبتُ ذلك بسؤاله عن **بداية التصنيف في السيرة النبوية**..

فأجابَ بأنَّ **أَبان بن عُثمان بن عفَّان** (ت: ١٠٥هـ) هو أَوَّلُ مَن كَتَبَ في السيرةِ النبوية، وقد دوَّن ما سَمِعَ من أخبارِ السيرةِ والمغازي، وسلَّمها إلى عبدالملك في حَجِّه سنة ٨٢هـ فأتلفها سُليمان[2].

وصيَّةُ الرَّشيد

وحينما هَمَمنا بالانصراف من رُوَاقِ الخِزَانَة، رأينا لوحةً عُلِّقت فوقَ عِضَادَة[3] الباب، وعليها مكتوبٌ «وَصِيَّةُ الرَّشِيد»، فإذا هي وصيةٌ قد عَهِدَ الخليفة هارون الرشيد إلى مُؤدِّب ولده الأمين، وفيها:

«يا أحمرُ، إنَّ أميرَ المؤمنينَ قد دفعَ إليكَ مُهجَةَ نفسه وثمرة

---

(1) الأعلام: ٤/ ١٨٩.

(2) نفس المصدر السابق: ١/ ٢٧.

(3) العِضَادَة: الخشبة التي على كتف الباب، ولكل باب عِضَادَتَان، وأعضَاد كل شيءٍ: ما يشدُّ جوانبه.

قلبه، فصيِّر يَدَكَ عليه مبسوطة، وطاعته لَكَ واجبة، فكُن له بحيث وضعكَ أميرُ المؤمنين، أقرئهُ القرآن وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلِّمهُ السُّنَن، وبصِّرهُ بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضَّحِك إلا في أوقاته، وخُذهُ بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفعِ مجالس القُوَّاد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعةً إلا وأنتَ مغتنم فائدة تُفيده إياها من غيرِ أن تُحزنه فتُميتَ ذهنه، ولا تُمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعتَ بالقُربِ والمُلايَنَة، فإنَّ أَبَاهُمَا فعليكَ بالشدَّةِ والغِلظَة»[1].

وقد عَكَسَت لنا هذه الوصيَّة البليغة مسؤولية الخليفة إزاءَ حالةِ عصره الثقافية، فإذا كانت العلومُ والثقافة التي يُريدُها الرشيدُ في أبنائه بهذه الصورة، فكيفَ يحبُّ أن تكونَ حالةُ مَن ينادمونَ الخليفة أو يُشرفونَ على دولته؟ حقاً إنَّها نظرةٌ واضحةٌ لما يريده العصر من حُسن التأدُّب والمعرفة بكل الأمور، وقد عُرِفَ عن الرشيد بالذات أنَّه كان من طلاب العلم، قال القاضي الفاضل: «ما أعلمُ أنَّ لِمَلِكٍ رحلةٌ قَط في طلبِ العِلْمِ إلا للرشيد، فإنَّه رَحَلَ بولديه: الأمين والمأمون لِسَمَاع «الموطأ» على مالكٍ رحمه الله»[2].

(1) ورَّاقو بغداد في العصر العباسي، د. خيرالله سعيد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٤٧ – ٤٨.

(2) وراقو بغداد: ٤٨، تاريخ الخلفاء: ٤٦٩.

مقتنيات الخزانة

يمكن اعتبار هذه الخِزانَة بمثابة القلب النَّابِض لبيت الحِكمَة؛ فبالإضافة إلى الكتب التي وَرِثَها المأمون عن أبيه الرشيد وجدِّه المنصور، فقد حَوَت على تلك الكتب التي استقدمها المأمون من بلاد الرُّوم، وبذلك حُفِظَت أصولها وترجماتها، وأصبحت من مقتنيات بيت الحِكمَة، ومن هذه الترجمات: ترجمة يوحنا بن البطريق لكُتُب أرسطو، وكذلك ترجمته لكتب أبقراط، وكذلك فعل حُنَين بن إسحاق وغيره، وترجم الحَجَّاج بن مطر مؤلَّفاتٍ في الرياضيات، ومنها «**المجسطي**» لبطلميوس، وكان قد ترجم للرشيد «**أصول الهندسة**» لإقليدس، ثمَّ أعادَ ترجمتها للمأمون، وعُرِفَت هذه الترجمة الأخيرة باسم «**النقل المأموني**»، وترجمَ «**كتاب المرآة**» لأرسطو، كتابه الآخر «**أثولوجيا**»، وترجمَ يوحنا بن البطريق كتاب «السماء والعالَم» لأرسطو، وصحَّحه حُنَين بن إسحاق، لأنَّ يوحنا لم يكن يُجيد العربية.

وبالإضافة إلى الكُتُب المترجمة، فإنَّ خزانة بيت الحِكمَة حَوَت كُتُباً كثيرة مما أُلِّفَ للمأمون في هذا العصر، فقد كان هناك مجموعة من العلماء يُؤلِّفونَ للمأمون خاصَّة، وكانت صلتهم وثيقة ببيتِ الحِكمَة، مثل: سهل بن هارون، ومحمد بن موسى الخوارزمي، وعمرو بن الفَرَّخان الذي ألَّف كُتُباً في النجوم، وتفسير بعض

كتب اليونان، فقد ألَّف «**تفسير الأربع مقالات**» لبطلميوس، وكتاب «**اتِّفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب**»، وألَّف يوحنا بن ماسويه «**رسائل ومختصرات موجَّهة إلى المأمون**»، وألَّف جبرائيل بن بختيشوع للمأمون رسالةً في الأطعمة والأشربة، ومقالةً في تركيب العطور[1].

(1) بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية: ٣٩ - ٤٠.

رُواق الترجمة

أخذنا السَّير في دهليزٍ واسع يؤدِّي في نهايته إلى رواق التراجمة الذي كان يمتدُّ خلال بهوٍ فسيح على طول الناظر، وقد وقعت أعيننا على ثلاث حجرات جهة اليمين بها مئات الكتب العتيقة، وعندما سألنا الرحالةَ الفارسيَّ عنها أخبرنا بأنَّها جاءت من بلاد قبرص بطلبٍ من أمير المؤمنين الذي اشترطَ على حاكمها ألا يقبل منه صُلحاً إلا إذا أرسلَ إليه ما في بلاده من كتب، وكان فريقٌ من المعاونين يقومون بتصنيفها وفهرستها استعداداً لعملية الترجمة التي قد تصل لأشهر من العمل المتواصل[1].

وعلى باب إحدى هذه الحجرات، أطلعنا الرحالةُ على «**ما شاء الله اليهودي**» وهو مِن جُملةِ المنجِّمين الذين اتَّصلوا بأبي جعفر المنصور بعد «**نوبخت**» وكسبوا الإنعامات منه، وهو اليوم يعملُ على ترجمةِ الكتب التي تبحث في عِلمِ الأفلاك، وقد استحسنا تلك التخصُّصية في عمل المترجمين.

ثمَّ استطردَ الرحَّالةُ قائلاً بأنَّ الفرس قد برعوا في النِّجامَة على

(1) اقتبستُ هذا النص من رواية «الحَدَقي»، رقم الصفحة: ٣١٢.

العرب الذين يتجافَوْن عنها ويعدُّونَها هي والسِّحر الذي ينهى الشَّرعُ عنه عِلماً واحداً، بخلاف الفُرس فإنَّهم يوجِّهون عنايتهم إلا العُلا في مباحِثِهم ومناظراتِهم؛ ولذلك تجد انصبابَهم إلى الرَّصد وما يُنبئ عنه من إشاراتِ النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم، وكان المقرَّبَ لهم في الإسلام أبو جعفر المنصور؛ لأجل أن يطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب في بروجها وينبئوه عن جدب الأرض وخصبها؛ لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانِه من المنفعة العَظيمة للملوك، ثم قرَّبهم البرامكة لاستشارة الأَسْطُرلاب في جلوسهم وركوبهم وما يُباشرون من جميع الأعمال؛ ولينظروا في النجوم ويدركوا علم الأبعاد ويوقعوا زمنَ الكسوف، وعقدوا لهم مجلساً يتناظرونَ فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيِّزة وأسبابها بطرقٍ هندسية، وما يَرَوْن من الأفلاك التي تختصُّ بالكواكب الثابتة وغير ذلك[1].

وعلى الجهة المقابلة لهذه الحجرات تقع حجرة أمين الرُّواق، وقد استقبلنا بحفاوةٍ وترحابٍ منقطعي النظير وأجلَسَنا عن يمينه كما عادتهم في إكرام الأضياف، ثم أخذَ الأمينُ يعدِّد لنا اللغات المتداولة لديهم في الترجمة إلى العربية، فكانت سبع لغات وهي:

(1) حضارة الإسلام في دار السلام: ١٦٢ - ١٦٣.

فعجبنا لهذا العدد الكبير من اللغات المستخدمة عندهم في عمليات الترجمة، ثمَّ جالَ في خاطري سؤالٌ حول كيفية وصول علوم الأوائل إلينا باللغة السُّريانيَّة القديمة، فأوضحَ لنا الأمينُ أنَّ الأديرةَ المسيحية قد ساهمتْ بشكلٍ كبير في نقل التركة العلمية اليونانية، وكذلك الفارسية أيضاً إلى اللغة السريانية، وعندما فتحَ العربُ بلادَ السندِ والهند؛ وجدتْ هذه الأعمال طريقها إلينا[1].

وقد رأينا أحد الخطَّاطين المَهَرة يَخُطُّ موعظةً قالها سيِّدُ القرَّاء، أبو المنذر أبيُّ بن كَعْبٍ ﷺ: «**تعلَّموا العلمَ واعمَلوا به، ولا تَتَعلَّمُوه لتتجمَّلوا به؛ فإنَّه يُوشِك - إنْ طالَ بكم زمان - أن يُتَجَمَّل بالعلم كما يَتَجَمَّل الرَّجلُ بثوبِه**»[2].

وهنا تراءَى لنا أحدُ هؤلاء التراجمة العاملين بالرُّواق في طريقه

(1) خريطة بيري رئيس: المعرفة المنسية للعرب واكتشاف أميركا، سوزانه بيليغ، ترجمة: محمد سامي الحبَّال، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م، ص ١٥٧.

(2) جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٦٩٣.

إلى الردهة الواسعة في طرف الرُّواق؛ فقفزَ إلى ذهني سؤالٌ جالَ بخاطري كثيراً وهو يدورُ في فلكِ إمكانية ترجمة أشعار العرب إلى بعض اللغات الأخرى؛ وإذ بالجاحظ يمرُّ بنا فجأةً ويجيبُ على الفورِ بأنَّ «الشِّعْر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل، ومتى حُوِّل تقطَّع نظمُه، وبطَل وزنُه، وذهب حُسنه، وسقط موضع التعجب، لا كالكلام المنثور»[1]، فاقتنعتُ بما قاله إمامُ الكُتَّاب مِن امتناع الشِّعْر العربي عن الترجمة.

وعندئذ استذكرتُ ما رُوي أنَّ سُفيان الثوري رحمه الله كان يُنشد متمثِّلاً[2]:

إذا العلم لم تعمل به كان حجَّة عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله

فإنْ كنتَ قد أوتيتَ علماً فإنَّما يصدِّق قولَ المرء ما هو فاعلُه

وكانَ أبرزَ ما تزيَّن به هذا الرُّوَاق هو كثرة الحِكَم والوَصَايا المكتوبة على جدرانه الحجرية إمَّا نقشاً أو حَفْراً، فكان مِن هذه الحِكَم:

*** أَجَلُّ مَا يَنْزِل مِنَ السَّمَاءِ التَّوْفِيق، وأَجَلُّ ما يَصْعَد مِنَ الأَرْضِ الإِخْلاص**[3].

---

(1) الحيوان للجاحظ: ١/ ٧٥.

(2) جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٦٩٨.

(3) علي بن أبي طالب: أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين: ١٦٦.

* إنْ كنتَ تأْمَلُهُ فلا تأمَنْه[1].

* مَنْ قَنِعَ مِنَ الدُّنْيَا باليَسِير، هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ عَسِيْر.

وعندئذٍ أمرُ كبيرُ التراجمة أحدَ الغلمان أن يحضرَ لنا طعاماً، فقد بدت ملامح النَّصَب على وجوهنا، فأحضر لنا على الفور حساءً ساخناً وتمر وزبيب، فعادَ النشاطُ إلينا بعد تناول هذه الوجبة الخفيفة، فلم يكن الوضع يحتملُ أن نزيد في الطعام أكثر من ذلك، حتى لا نُصاب بالإعياء والنَّصَب.

أحبَّ صاحبُنا الرحَّالة أنْ يعطينا نُبذةً عن كبير التراجمة؛ فاسمه حُنَين بن إسحق العبادي[2]، وهو طبيبٌ نصرانيٌّ وكان فاضِلًا في صناعة الطبِّ وإمام وقته فيها، وكان فصيحاً لَسِناً، بارعاً في الشِّعْر، وكان إسحق والده صيدلانياً، فنشأ حُنَين مُحِباً للعِلم، وقد درس الطبَّ في جنديسابور وهو متقنٌ للعربية والسريانية والفارسية اتقاناً عجيباً[3].

رؤية المأمون لأرسطو!

عندما شرعنا في الدخول إلى ذلك الرُّواق، وقعت أعيننا على تلك القَمَاطِر المملوءَة بالكُتُب، والتي كنَّا قد شاهدناها مِن قبلُ

(1) نُقشت هذه الحكمة على خاتم الإمام الجُنَيْد. انظر: نزهة الفضلاء: ١١٥١.

(2) كانت وفاته سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م.

(3) بيت الحكمة البغدادي وأثره العلمي: ٥٢.

خارج البيت، وقد وصلت إلى رُوَاق الترجمة ليبدأ العملَ على ترجمتها إلى العربية، وكان حُنين بن إسحق هو المسؤول عن تكليف المترجمين بمهامِّ ترجمة هذه الكتب المُنتقاة بعناية مِن قِبَل الوفد العلمي الذي أرسله المأمون إلى بلاد الروم.

سألْنا كبيرَ المترجمين عن قصة هذه الكُتُب الروميَّة، فأدهشنا بقصةٍ غريبة وقعت للمأمون وكانت هي السبب في ذلك؛ فقد رأى المأمون رؤيةً في منامِه يوماً كأنَّ رجلاً أبيضَ مشربًّا بحُمرة، واسعَ الجبين، مقرونَ الحاجبين، أجلحَ الرأس، أشهلَ العينين، حَسَنَ الشمائل، جالسٌ على سريره، فقال المأمون: وكأنِّي بين يديه وقد مُلِئتُ له هيبة، فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا أرسطوطاليس، فَسُرَّ به وقال: أيها الحكيم، أسألك، قال: سَل، قال: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل، فقال المأمون: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع؟، فقال المأمون: ثمَّ ماذا؟ قال: ثمَّ لا ثمَّ!، فقال له المأمون: زدني، فقال له: مَن يصحبك في الذهب فليكُن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد.

فلمَّا استيقظَ المأمون مِن منامه، حدَّثته نفسه وحثَّته همَّته على تطلُّب كتب أرسطوطاليس، فلم يجد منها شيئاً في بلاد الإسلام، فراسلَ المأمون ملك الروم الذي لم يجد لها أثراً ببلاده، فاغتمَّ ملك الروم لذلك وقال: يطلبُ مني ملك المسلمين علم سلفي من يونان فلا أجده! أيُّ عذرٍ يكون لي أم أي قيمة تبقى بهذه الفرقة الرومية

عند المسلمين؟!.

وأخذَ ملك الروم في السؤال والبحث، فحضر إليه أحد الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة النازحة عن القسطنطينية، وقال له: عندي علم ما تريد، فقال له: أدركني، فقال: إنَّ البيت الفلاني في موضعِ كذا الذي يقفل كل ملكٍ عليه قفلاً إذا ملك ما فيه قال فيه على ما يُقال مال الملوك المتقدمين، وكلُّ ملكٍ يجيء يقفل عليه حتى لا يُقال قد احتاج إلى ما فيه لسوء تدبيره، ففتحه، فقال له الراهب: ليس الأمرُ كذلك، وإنما في ذلك الموضع هيكل كانت يونان تتعبَّد فيه قبل استقرار مِلَّة المسيح، فلمَّا تقرَّرت ملَّتُهُ بهذه الجهات في أيام قسطنطين بن اللانة، جُمعت كتب الحكمة من أيدي الناس وجُعلت في ذلك البيت وأُغلق بابه وقفل الملوك عليه أقفالاً كما سمعت.

فجَمَعَ الملكُ مقدَّمي دولته وعرَّفهم الأمر واستشارهم في فتح البيت، فأشاروا بذلك، فاستشارَ الراهب في تسييرها إذا وجدت إلى بلد الإسلام، وهل عليه في ذلك خطرٌ في الدنيا أم إثمٌ في الآخرة؟، فقالَ له الراهب: سيِّرها فإنَّك تُثَابُ عليه، فإنَّها ما دخلت في مِلَّةٍ إلا وزلزلت قواعدها، فسار إلى البيت وفتحه ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب، ووجدوا فيه كتباً كثيرةً فأخذوا من جانبها بغير علمٍ ولا فَحْص خمسة أحمال وسُيِّرت إلى المأمون، فأحضر لها المأمون المترجمين فاستخرجوها من الرومية إلى العربية، ثم تنبَّه الناسُ بعد ذلك على

تطلُّبها بعد المأمون وتحيَّلوا إلى أن حصَّلوا منها الجملة الكثيرة، ولما سُيِّرت الكتب إلى المأمون جاءَ بعضها تاماً وبعضها ناقصاً، فالناقصُ منها ناقصٌ إلى اليوم لم يجد أحدٌ تمامه.

ثمَّ ذكر لنا ذلك كبيرُ المترجمين روايةً أخرى حول هذه الكتب الرومية، فذكرَ أنَّه كان ببلد الروم هيكلاً قديمَ البناء، عليه بابٌ لم يُر قط أعظم منه بمصراعي حديد، كان اليونانيون قديماً عند عبادتهم يعظِّمونه ويدعون فيه، فسأل أحدهم ملك الروم أن يفتحه له فامتنعَ عن ذلك لأنَّه أُغلقَ منذ وقت تنصَّرت الروم، فلم يزل له يراسله ويسأله شفاهاً عند حضور مجلسه.

وبعد إلحاحٍ منه، تقدَّم ملك الروم يفتحه، وإذا ذلك البيت من المرمر والصخر العِظَام ألواناً وعليه من الكتابات والنقوش ما لم يُر ولم يُسمع بمثله كثرةً وحُسناً، وفي هذا الهيكل من الكتب القديمة ما يُحمل على عدَّة أجمال، وكَثُرَ ذلك حتى قال: على ألف جمل!، بعض ذلك قد أُخلق وبعضه على حاله وبعضه قد أكلته الأَرَضَة، وكان فيه من آلات القرابين من الذهب وغيره من أشياءَ ظريفة.

وهنا تقدَّمتُ لسؤاله عن مكان هذا البيت الرومي، فذَكَرَ لي أنَّه على ثلاثة أيامٍ من القُسطنطينية، وأنَّ المجاورين لذلك البيت قومٌ من الصابئة الكلدانيين قد أقرَّهم الروم على مذهبهم ويأخذونَ منهم الجزية.

كما تقدَّم صديقي لسؤاله عن معنى اسم أرسطوطاليس، فأجابه أنَّ معناه: مُحِب الحِكمَة، ويُقال: الفاضل الكامل، ويُقال: التام الفاضل، وهو أرسطوطاليس بن نيقوماخس بن ماخاؤن، الذي أخرجَ الطب لليونانيين، وكان أبوه نيقوماخس متطبِّباً لفليبس أبي الإسكندر وهو من تلاميذ أفلاطون[1].

الترجمة في صدر الإسلام

عَهِدتُ بسؤالٍ إلى صاحبِنا الرحَّالة حول عدم الاهتمام بالترجمة في عصر صدر الإسلام؛ فأشارَ إلى ضرورة الإلمام الجيد بتاريخ بدايات الدولة الإسلامية في المدينة على عهد النبيِّ ﷺ، ثم على عهد بني أميَّة الذين وَرِثوا أمر الخلافة، وبعد تفكيرٍ ومُدارسةٍ معه في محاولة تقصِّي هذه الأسباب؛ ظهَرَ لنا أنَّ مرجع هذا الأمر يتَّصل بعدَّة عوامل: حقيقةً لم تكن اللغة العربية بحالٍ من الأحوال حائلاً دون الإقدام على هذه الخطوة، بقدرِ ما كان يشعر به المسلمون من قوةٍ في تمسُّكهم بدين الإسلام تمكِّنهم من الاستغناء عن صنوف المعارف والفنون الأخرى التي ازدهرت في كثيرٍ من البقاع، لقد كانت قوة الجماعة الإسلامية في ذلك الوقت حافزاً قوياً على الاستغناء عن طلب هذه العلوم، لكن

(1) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدِّين أبي الحَسَن علي بن يُوسُف القفطي، تحقيق: إبراهيم شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٢٩ - ٣١.

ظهرت الحاجة الملحَّة لطلب هذه العلوم حين ضعف شعور المسلمين بعض الشيء، وانفضَّت وحدتهم، وبدأ. النزاع يدبُّ بينهم على الحكم، فبدأ بعضهم يكوِّن صلات علمية مع الجماعات الأخرى.

كذلك كان للاختلاط بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى دخلٌ في هذا التأثير، ففي القرن الأول الهجري حدث نقاشٌ وجدل عنيف بين المسلمين حول القضاء والقدر وحرية الإرادة، وبطبيعية الحال فقد تسرَّب إليهم هذا النقاش من المسيحيين الشرقيين بحكم الاختلاط الشخصي، كذلك تسَّربت إليهم بعض أفكار الفلسفة اليونانية، مثل أفكار أرسطو وأفلاطون، التي وصلتهم عن طريق النقل الشفوي قبل الترجمة والنقل الرسمي.

لقد كانت الصلات بين الجماعات الإسلامية وغيرها، والنقاش والجدل حول بعض المسائل المتعلِّقة بالعقيدة ذاتها، من الأمور التي ساعدت على معرفة المسلمين بعلوم الإغريق وفلسفاتهم على وجه الخصوص، لكن لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نقلِّل من تأثير وشأن حركة الترجمة والنقل، فالمعرفة الكاملة والتامة بتراثِ أيِّ شعبٍ من الشعوب تقتضي فهم هذا التراث ونقله، ورغم هذا فإنَّه يمكن لنا أن نتبيَّن أنَّ اتصال المسلمين – فكرياً وعلمياً – بالإغريق وأصحاب الثقافات الأخرى تمَّ بصورةٍ واضحة عن طريق إحدى وسيلتين:

الأولى: النقاش والحوار والجدل الشفوي.

والثانية: حركة الترجمة الرسمية ونقل التراث ذاته[1].

لقد كان للسُّريان دوراً واضحاً وملموساً باعتبارهم حلقةً هامة من حلقات السلسلة التي انتقلَ عبرها التراث من اليونانية القديمة إلى المسلمين؛ فقد قاموا بترجمة كثيرٍ من الكتب والمؤلَّفات الهامة من اليونانية. فنحن نعلم أنَّ المجامع العلمية والفكرية التي تكوَّنت في مناطق الاتصال بين المسلمين واليونانيين كانت بحاجة إلى جوٍّ من التسامح الفكري والعلمي بعدما تعرَّض له العلماء والمفكِّرين من اضطهادٍ في ظلِّ الحكم الروماني، وكان الدين الإسلامي الجديد يدعو للتسامح وحرية ممارسة الفكر والبحث العلمي - وهذا في ذاته يفسِّر لنا كذب القصة القائلة بأنَّ المسلمين حين قدموا إلى مصر، أحرقوا مكتبة الإسكندرية على ما يقول بعض المؤرخين، فلا يمكن عقلاً أن يقبل ما يطلبه الدين الإسلامي من الحضِّ على التسامح وحرية الفكر وطلب العلم، وفي نفس الوقت يقبل الادعاء القائل بأنَّ المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، كما أنَّه لم يتوافر دليلٌ علميٌّ واحد من خلال النصوص والوثائق التي كُتبت في هذه الفترة يُشير إلى صدق هذه القضية - فمارسَ العلماء والمفكرون حريتهم كما

(1) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، د. محمد البهي، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦م، لا يوجد جهة للنشر، ص ٢٢٤ - ٢٢٧.

حدث لهم من جانب الرومانيين.

لقد كان المسلمون بحاجةٍ إلى العلم والمعرفة، وبحاجة لأن يقفوا على تراث الحضارات الأخرى؛ فاستقدمَ الخلفاء المترجمون من كلِّ مكان وأخذوا يُغدقون عليهم الأموال ويمنحونهم الهدايا والهبات، لينقلوا نفائس الفكر الإغريقي إلى العربية.

الترجمة والعبَّاسيين

يبدو للناظر أنَّ العباسيين كانوا قد حملوا عقلية جديدة لم تُعهد في تاريخ الأمَّة الإسلامية من قبل، وهذه العقلية تتمثَّل في طلب العلم مهما كان نوعه، وإجراء البحوث العلمية بكلِّ صورها، والواقع أنَّ هناك خلفية تاريخية دفعت العباسيين إلى الاهتمام بهذه المسألة؛ فالعباسيين نشأوا وتعلَّموا في كنف الفرس، على الرغم من أنَّهم من عنصر وأصل عربي، وبحكم هذه التنشئة رغبوا في الاستزادة من العلم، وبذلوا كل ما في وسعهم لتشجيع العلماء والمفكرين، لنقل الثقافات الأجنبية في ميادين الأدب والسياسة والطب والفلسفة والعلوم الطبيعية والفلك، كذلك فإنَّ العباسيين لم يهتموا كثيراً بجنسية المترجم، وإنما كانوا يسألونه الدقة، لأنَّ الغرض الأساسي هو الحصول على المعرفة والعلم.

هذا ويمكن تقسيم حركة الترجمة العلمية في العصر العباسي إلى

ثلاثة مراحل:

* **المرحلة الأولى**: تمتدُّ من عام ١٣٦هـ وحتى عام ١٩٨هـ؛ أي من خلافة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين إلى وفاة هارون الرشيد، وفي إطار هذه المرحلة نجد إسهامات يوحنا ابن البطريق وعبدالله بن المقفَّع ويوحنا بن ماسويه.

* **المرحلة الثانية**: تبدأ من عام ١٩٨هـ وحتى عام ٣٠٠هـ، وتشمل حُنَين بن إسحاق وآخرين غيره ممن ساهموا في الإنجاز العلمي في هذا العصر، إلا أنَّ إسهامات حُنَين تحتلُّ الجزء الأكبر من هذه الفترة.

* **المرحلة الثالثة**: تمتدُّ من عام ٣٠٠هـ وحتى عام ٣٥٠هـ، وتشمل أبو بشر متى بن يونس، ويحيى بن عدي، وأبو سليمان السجستاني[1].

فِي رِحَابِ القَلَم!

كان أعظمَ ما رأيناه في رُوَاق المترجمين هو نقشٌ كبيرٌ لقَلَمٍ جميل، يقعُ في مقابلِ الداخلِ إلى مقاعد السادة التراجِمَة، وكان مكتوباً تحته هذا النَّص:

«إنَّه لَمَّا كانَ القلمُ مطيَّةَ الفِكر والبيان، ومُخرِجَ الضمير إلى

(1) حنين بن إسحاق: العصر الذهبي للترجمة: ٢٧.

العِيان، ومستنبطاً ما تُوارِيه ظُلَمُ الجَنَانِ إلى نُورِ البيان، ومُريحَ الفِطَنِ العوازب، وجالبَ الفِكَرِ الغرائب، ومفرِّق الجلائب، وعمادَ السِّلم، وزنادَ الحرب، ويدَ الحَدَثَان، وخليفةَ اللسان، ورأسَ الأدوات التي خصَّ اللهُ بها الإنسان، وشرَّفه بها على سائرِ أصنافِ الحيوان، ومركباً لآلة قد تقدَّمَتْ كلَّ آلة، وحِكمةً سبقَتْ في الإنسان كلَّ حكمة، وَقوَاماً لهندسة عقلية، ومصدراً لعَقلِ العاقل، وجهلِ الجاهل. الناقلَ إلينا حِكَمَ الأولين، وحاملَها عنَّا إلى الآخرين، الحافظَ علينا أمرَ الدنيا والدِّين، أولُ شيءٍ خلقه اللهُ بأمره وسَبَّحَه، ومجَّده وحَمِدَه وسجدَ له، فكان له فرسانٌ خُلِقَ لَهُم»[1]، فأُعجبنا غايةَ العَجَب من هذا البيان العربي الأصيل في التعبير عن القلم.

بصحبة أمين الترجمة

لكون رُوَاق الترجمة هو الأهم والأكبر في بيتِ الحِكمَة؛ فقد حَظِيَ الكُتَّابُ العَامِلُونَ فيه بمكانةٍ خاصَّةٍ مِن بينِ طوائف العاملينَ في هذا البيتِ العلمي، فكانوا يلبسُونَ الدُّرَاعَات؛ وهي ثِيَابٌ مشقوقةٌ مِنَ الصَّدر[2]، ولهم عَمَائِم خاصَّة تميِّزهُم عن غيرهم.

تحدَّثنا مع أمين الترجمة في بيتِ الحِكمَة، واسمه: **يوحنا بن**

(1) من رسالة كتبها أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله النَّجِيَرمي في القَلَم إلى أبي عمرانَ بن رواح. انظر: زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/ ٤٢.

(2) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ١١٦.

البطريق[1]، وكان رجلًا فَاضِلًا، دَمِثَ الخُلُق، لَيِّنَ الطَّبْع، على رأسِه عمامَة سوداء مُكَوَّرَة، وقد ابتدأنا في الحديثِ معه بشأن تاريخ حركة الترجمة منذ بدايتها في فترةٍ مبكِّرة من زمن الدولة الأموية.

فأشارَ إلى أنَّ بوادرَ هذه الحركة العلمية قد ظهرت في زمن الأمويين مع الأمير **خالد بن يزيد بن معاوية**، وهو أولُ مَن عَنِيَ بنقل علوم الطب والكيمياء للعربية، وكلَّفَ جماعةً من اليونانيين المقيمين في مصر بنقل كثير من الكتب اليونانية التي تناولت صناعة الكيمياء والفلك، وتمَّت في عهده ترجمة أول كتاب من اليونانية إلى العربية وهو كتاب «**أحكام النجوم**» الذي ألفه الحكيم «**هِرْمس**»، وقد كان هذا الأمير موصُوفاً بالحكمة؛ فعن الأصمعيِّ: قيل لخالد بن يزيد: ما أقربُ شيءٍ؟ قال: **الأجَل**، قيل: فما أبعَدُ شيءٍ؟ قال: **الأمَل**، قيل: فما أرجَى شيءٍ؟ قال: **العَمَل**[2].

وفي هذه الفترة بدأت حركة الترجمة في الانتعاش، فنجد أنَّ **سُلَيْمان بن سَعْد الخُشَنِي** (ت: نحو ١٠٥هـ) هو أول مَن نقل الدواوين من الرومية إلى العربية، وأول مسلم وَلِيَ الدواوين كلها في العصر الأموي، وكانت النصارى تلي الدواوينَ في الشام قبلَه، وهو من أهل الأردن، انتقلَ إلى الشام، فَوَلِيَ الديوانَ لعبدالملك بن

(1) بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية: ٤٠.

(2) نزهة الفضلاء: ١/ ٥١٢.

مروان، وعَرَضَ عليه أن ينقلَ الحساب من الرومية إلى العربية، فأمره بذلك، فحوَّله؛ فولاهُ جميع دواوين الشام، واستمرَّ أيام الوليد وسليمان، وعزله عمر بن عبدالعزيز لهفوةٍ بدرتْ منه[1].

وفي نفس الفترة، نجد أنَّ **صَالِح بن عبدالرَّحْمَن التَّمِيمِي**، المعروف بـ «**صَالِح الكَاتِب**» (ت: نحو ١٠٣هـ) هو أول مَن حوَّل كتابة دواوين الخَرَاج من الفارسية إلى العربية في العراق، وكان يُجيد الإنشاء في اللغتين، وكان فصيحاً بالعربية، قَوِيَ الحَافِظَة، واتصلَ بالحَجَّاج الثَّقَفِي قبل أن يلي العراق، فلمَّا وَلِيَ جعله في كتَّاب ديوانه، ثمَّ قلَّده أمرَ الديوان الذي كان يُكتب بالفارسية، فنقله صالح إلى العربية سنة ٧٨هـ، ووضعَ اصطلاحات للكتَّاب والحسَّاب استغنوا بها عن المصطلحات الفارسية.

وقد قيل: لمَّا أرادَ نقل الديوان إلى العربية، بَذَلَ له كتَّاب الفرس ثلاثمائة ألف درهم، على ألا يفعل، فأبَى، وَوَفَدَ على سليمان بن عبدالملك في الشام، فولاهُ خَرَاج العراق، فعادَ إلى الكوفة، فاستمرَّ أيام سليمان كلها، وأقرَّهُ عُمَر بن عبدالعزيز مدَّة سنة، ثمَّ استعفَى فأعفاه، وقيل: عزلَه.

ولمَّا وَلِيَ يزيد بن عبدالملك، كان صَالِح بالشام، فكتبَ عُمَر بن

(١) الأعلام: ٣/ ١٢٦.

هبيرة إلى يزيد في إنفاذه إليه، ليسأله عن الخَرَاج، فأرسله إليه وأوصاه به، فلمَّا وصل إلى ابن هبيرة قتله، وكان جميع كتَّاب العراق في عصره تلاميذٌ له، قال عبدالحميد بن يحيى الكاتب: «لله درُّ صالح، ما أعظم مِنَّتَهُ على الكتَّاب»[1].

وقد أبدى الخليفة الأموي عُمَر بن عبد العزيز رحمهُ الله اهتماماً بالترجمة من خلال تكليفه للطبيب اليهودي البصري «**ماسرجويه**» بترجمة أول كتاب في الطب ألَّفه الطبيب «**أهرون**» – الذي عاش في الإسكندرية – من السريانية إلى العربية، وكان من أشهر المترجمين في العصر الأموي **يعقوب الرهاوي** الذي نقلَ الكثير من الكتب من اليونانية إلى العربية.

ولمَّا قامت الدولة العباسية اتجهت ميول الخلفاء العباسيين – الذين كانوا أكثرَ انفتاحاً على العناصر غير العربية وخاصة الفرس – إلى معرفة علوم الفرس واليونان؛ فعني أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب، ونقل له إسحاق بن حُنَين بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب، كما نقل عبد الله بن المقفع –الفارسي الأصل – كتاب «**كليلة ودمنة**» من الفهلوية، وترجم كتاب «**السندهند**» وكتاب اقليدس إلى العربية. وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون الرشيد الذي تُشير إليه الكثير من المصادر باعتباره مؤسس بيت الحكمة في بغداد.

(1) الأعلام: ٣/ ١٩٢.

هذا ويُعتبر ابن المقفَّع (ت: ١٤٢هـ) أول مَن عَنِيَ بترجمة كتب المنطق في الإسلام، وُلد في العراق مجوسيًّا وأسلمَ على يد عيسى ابن علي (عم السَّفَّاح)، وولي كتابة الديوان للمنصور، وترجمَ له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق، وكتاب «المدخل إلى علم المنطق» المعروف بإيساغوجي، إلا أنَّ أشهر ترجماته كتاب «**كليلة ودمنة**»[1].

ويُعبر المنصور العبَّاسي أول مَن عَنِيَ بالعلوم من ملوك العرب، فكان عارفاً بالفقه والأدب، مقدَّماً في الفلسفة والفَلَك، محبًّا للعلماء، وفي أيامه شرعَ العرب يطلبونَ علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول أَسْطُرْلاب في الإسلام، صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري[2].

وفي عهد المأمون قَوِيَت حركة الترجمة العلمية من اللغات الأجنبية وخاصة الفارسية واليونانية؛ إذ أرسلَ هذا الخليفة العباسي البعوثَ إلى القسطنطينية لإحضار المصنَّفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والطب، كما أتاحَ الفرصةَ لأهل الذِّمَّة لإبرازِ مقدرتِهم العلمية؛ فكانت معرفتهم الواسعة باللغات الأجنبية، سببٌ في اعتمادِ الخلفاء العباسيين عليهم، وبخاصَّة المأمون[3].

ويُلاحَظ أنَّ أغلب الترجمات التي تمَّت في النصف الثاني من

(1) الأعلام: ٤/ ١٤٠.

(2) نفس المصدر السابق: ٤/ ١١٧.

(3) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ١٢٢.

القرن الثاني الهجري، كانت مِنَ السُّرْيَانِيَّة إلى العربية، أمَّا في القرن الثالث فكان أغلبها من اليونانية مباشرة، وقد بلغت حركة الترجمة أوجَ نشاطها خلال القرنين الثالث والرابع، وشملت معظم التراث اليوناني في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعيات.

أقسام الرُّواق

من خلال حديثنا مع أمين الترجمة تبيَّن لنا أنَّ رواق الترجمة ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام رئيسية؛ كلٌّ منها قد انفردَ بلغةٍ أجنبيةٍ عن العربية، فالأولُ للفارسية، والثاني للسُّريانية واليونانية، والثالثُ للهندية.

كان على رأس القسم الأول **ابنُ المقفَّع** الذي يأتي على قائمة المترجمين عن الفارسية، وهو أحد النَّقَلَة من اللسان الفارسي إلى العربي، مضطلعاً باللغتين فصيحاً بهما، وأول مَن اعتنَى في الإسلام بترجمة كتب المنطق، ويعدُّ في مقدمة المترجمين عن الفارسية.

ويأتي بعده **أبو سهل الفضل بن نوبخت**، وهو فارسيُّ الأصل، وكان في خزانة الحِكمَة منذ زمن هارون الرشيد، وهو منجمٌ حاذق خبير باقتران الكواكب وحوادثها، ومعوله في علمه على كتب الفُرس، وكان أبوه منجماً أيضاً يصحب الخليفة المنصور، وقد اختصَّ بترجمة كتب النجوم والرياضيات، حيث كان دخولهم إلى بلاط العبَّاسيين كمُنجمين في عهد المنصور ومِن بعده الرشيد

والمأمون، وقد احتلوا مكانةً رفيعة في إدارة الدولة.

أمَّا القسم الثاني المتعلِّق باللغة السُّريانية واليونانية، فقد احتلَّ المكان الأبرز وسط بقية الأقسام؛ نظراً لكثرة مصنَّفات فلاسفة اليونان وعلمائهم الذين تناولوا مختلَف الموضوعات من طبٍّ ومنطقٍ وفلسفةٍ وطبيعة وكيمياء ونجوم ورياضة، حتى فاضت العلوم فيضاً، وتعتبرُ اللغة السُّريانية من اللغات الآرامية التي هي فرعٌ من اللغات السامية.

وهنا أشادَ الأمين بالدَّوْر الكبير الذي لعبه **السُّريان** في نقل التراث اليوناني بجملته؛ فقد لعبوا دَوْر الوسيط لأنَّ العرب لم يكونوا يحسنونَ اليونانية، في حين كان السُّريان على اتصالٍ باليونان أكثر من عشرة قرون، وكان علماؤهم في القرنين السابقين لظهور الإسلام يعملونَ جاهدين في نقل المؤلَّفات اليونانية إلى لغتهم السُّريانية.

ثمَّ أشارَ إلى دَوْر **إبراهيم بن الصَّلت** في ترجمة كتاب «**المِجَسْطِي**» لبطلميوس وبعض مقالات أرسطوطاليس وجالينوس، وكذلك أبو علي عيسى بن زرعة بن مرقس الذي كان أحد النَّقَلَة المجوِّدين من السُّريانية للعربية؛ فَمِن آثاره ترجمة كتاب «الحيوان» لأرسطوطاليس.

أمَّا القسمُ الثالث المتعلِّق باللغة الهندية؛ فقد كان أكثر مَن اشتغلَ فيه من الهنود الذين ترجموا كُتُباً في الرياضيات والنجوم

والطبِّ والأدب والتاريخ، ومِن جملتهم «**منكه الهندي**» الذي قَدِمَ من الهند إلى العراق أيامَ الرشيد، وهو أحد الأطباء الذين جَلَبَهم يحيى البرمكي من الهند، وكان عالِماً بصناعة الطب، حَسَنَ المعالجة، متقناً للغة الهند والفُرس، وهو الذي نقلَ كتاب «شاناق» الهندي في السموم من اللغة الهندية إلى الفارسية، ثمَّ أوعَزَ البرمكي إلى رجلٍ يُعرف بأبي حاتم البلخي بنقله إلى العربية، ثمَّ نُقل للمأمون على يد العبَّاس بن سعيد الجوهري مولاه، وقد فسَّر «منكه» كتاب أسماء عقاقير الهند لإسحق بن سليمان، وهناك غيره الكثير مِمَّن عملوا في قسم الترجمة عن الهندية.

شجرةُ العلوم

اصطَحَبَنا الأمينُ في جولةٍ ناحيةَ بعض التصاوير على هيئةِ شجرةٍ عظيمة ذات أفرعٍ وأغصان طويلة، وقد نُقِشَ على جِذْعِها «شجرة العلوم»، ويتفرَّع عنها فرعانِ رئيسيان يمثِّلانِ أساس تلك العلوم، وتنتهي إلى اثنانِ وثلاثونَ عِلْماً على هيئةِ ورقاتٍ صغيرة باللون الأخضر.

وقد افتنَّ الصنَّاع المَهَرة في نقش هذه الشجرة بالرخام الأسود والأخـضر، وجعلوها مزخرفةً بالصَّدف الأبيض وفيه كتابةٌ بالصَّدف الأحمر والأخضر كأنَّها لعينِ الناظرِ ياقوتٌ وزبرجد، فلم يتحوَّل نظرنا عنها لما راعنا من حُسنِها المفرط، فكان عملُ هؤلاء

الصنَّاع تحفةً تَسُرُّ الناظرين.

وقفنا أمام هذه الصورة وِقفة الذاهل الذي به عقدةٌ من السِّحر، ثم أَخَذَ الرجلُ يُشير إلى الفرعَينِ الرئيسيين لتلك الشجرة بوصفها يدُلان الناظر إلى نوعينِ من العلوم:

العلوم النقليَّة: وهي التي تتَّصل بالقرآن الكريم، وتشمل علوم التفسير والقراءات وعلم الحديث والفِقْه وعلم الكلام وعلوم اللُّغة العربية كالنحو والصَّرْف والبَيَان والشِّعْر، ويُطلق عليها أحياناً العلوم الشرعيَّة.

والعلوم العقليَّة: وتشمَل الفلسفة والطِّب وعلوم النحو والكيمياء والتاريخ والجغرافيا والموسيقى، ويُطلق عليها أحياناً العلوم الحِكْمِيَّة، أو علوم العَجَم، أو العلوم القديمة.

ثمَّ شرَعَ الأمينُ في وصفِ الأخيرة بأنَّها تلك العلوم التي يهتدي إليها الإنسانُ بفِكرِه، ويهتدِي بمداركِهِ البشريَّة إلى موضوعاتها ومسائلها حتى يعرفَ الخطأَ مِن الصَّواب ويُصيب الحقيقة، ويمكن تقسيم هذه العلوم إلى محمودٍ ومذمومٍ ومُباح، وقد حاولتُ العنايةَ بما قالَهُ من خلال الشكل التالي:

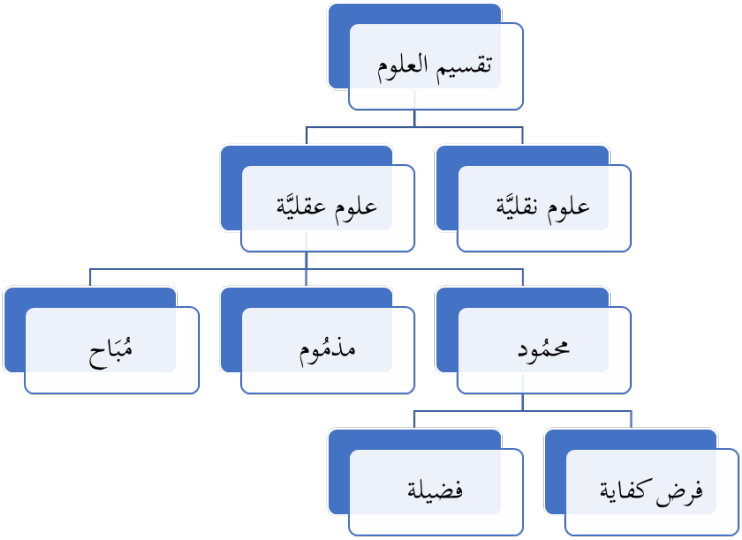

فالعلوم المحمودَة هي ما ترتبطُ بها مصالح الدنيا كالطِّب والحِسَاب، وهي تنقسم لما هو فرضُ كفاية، ولما هو فضيلة؛ فالكِفَائِي كلُّ علمٍ لا يُستغنَى عنه في قِوَامِ أمور الدنيا كالطِّب؛ إذ هو ضروري في حاجة حفظ الأبدان، وكالحِسَاب فإنَّه ضروري في المعاملات وقِسمَة المواريث وغيرها، وهذه العلوم التي لو خلا البلدُ منها؛ حرج جميع أهل البلد، وإذا قامَ بها واحدٌ كَفَى عن الآخرين.

وأمَّا ما يُعَدُّ فضيلةً لا فريضَة؛ فالتعمُّق في دقائقِ وحقائق الطِّب وغير ذلك مِمَّا يُستغنَى عنه، ولكنَّه يُفيدُ زيادةً أي بصيرةً في القَدرِ المُحتاج إليه.

وأمَّا العلوم العقليَّة المذمومَة؛ فعِلمُ السِّحر والطلسَمات والشعبذة والتلبيسَات.

وأمَّا العلوم العقليَّة المُبَاحَة؛ فالعلمُ بالأشعار التي لا سَخَفَ فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراها؛ أي ما لا ينبني عليه مصلحة دينية أو دنيوية[1].

وقد بَلَغَ عدد العلوم المدوَّنة على تلك الشجرة المُشَار إليها: **اثنانِ وثلاثونَ عِلماً**، وهي:

التفسير، الحديث، السيرة، اللَّغة، النحو، الصَّرف، التصوُّف، العَروض، الفِقْه، أصول الفِقْه، التاريخ، الطِّب، آداب العرب، البلاغة، الفَلَك، المنطق، الفلسفة، الهندسة، الحِسَاب، الهيئة، الجغرافيا، الموسيقى، علم الحيوان، الطبيعة، الرِّوايَة والقَصَص، الكَلام، الصَيدلَة، الكيمياء، الفِلاحَة، المِسَاحَة، الجَبْر، جر الأثقال، وتتعبها علومٌ تتفرَّع مِن بعضها؛ مثل: مصطلح الحديث، والجَدَل، وآداب البحث، ونَقْد الشِّعْر[2].

كما أشارَ الأمينُ إلى أنَّ هذا التنوع في العلوم المختلفة؛ أدَّى إلى

---

(1) أليس الصبح بقريب، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس – دار السَّلام، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص ٩٨.

(2) أليس الصبح بقريب: ٤١.

كثرة المناظرات والمجادلات بين العلماء، ثمَّ خَتمَ كلامه حول تقسيمِ العلوم؛ بأنَّه قد ظهَرَ في هذا العصرِ نوعانِ مِنَ العلماء[1]:

* **أهلُ العِلْم**: وهم الذين غَلَبَ عليهم النقلُ والاستيعاب.

* **وأهلُ الحِكْمَة**: وهم الذين غَلَبَ عليهم الابتداعُ والاستنباط.

حُذَّاق المترجمين

حاولنا الاستفادة من وجودنا مع أمينِ الترجمة، فطرحنا عليه سؤالاً بشأنِ حُذَّاق المترجمين في الإسلام، فأشارَ على الفورِ إلى أربعةٍ من التراجمة يمكن اعتبارهم حُذَّاق هذه المهنة؛ وهم:

* **حُنَين بن إسحاق.**

* **ثابت بن قُرَّه.**

* **عُمَر ابن الفرخان الطبري.**

* **يعقوب ابن إسحاق الكندي.**

إلا أنَّ حُنَين يبقى أشهرهم وأمهرهم على الإطلاق، وكان المترجمون يحرصونَ على الحصول على أفضل ما يستطيعون الوصول إليه من النُّسَخ، ومِن ذلك أن حُنيناً كان لا يبدأ الترجمة قبل أن يقارن بين النُّسَخ اليونانية المختلفة ليختارَ أكثرها دِقَّةً وأجودها، وحين لا يحصل

(1) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد: ١٢٣.

إلا على مخطوطٍ واحدٍ من كتاب؛ فإنَّه كان يعود إلى تنقيح ترجمته متى وقعت بين يديه نسخة جديدة كما كان يُصلح كثيراً مِن ترجماتِ غيره.

حُنين بن إسحاق

يُعتبر هذا الرجل من أعلام بيت الحكمة باتفاق؛ فكان لِزاماً علينا طرح عدة أسئلة للتعرُّف على شخصية هذا العالِم والمترجِم الذي سارت بذكرِه الرُّكبان، وقد أرادَ الأمينُ أنْ يُعطينا نُبذةً عن سيرته.

فهو **أبو زَيد حُنين بن إسحاق العِبَادِي**، وُلد سنة ١٩٤هـ، وهو مِن نصارَى الحيرَة، وُلد لأبٍ نسطوري يعمل بصناعة العقاقير والصيدلانيات، وقد نشأ حُنين مُحِباً للعِلم، توَّاقاً للمعرفة، فكان عليه أنْ يرتادَ مجالس التعليم، ويتلقى العلم على أربابه. فكان أول ما حصلَ له مِن الاجتهادِ والعناية في صناعة الطبِّ هو أنَّ مجلس «يوحنا بن ماسويه» كان مِن أعمِّ المجالس في التصدي لتعليم صناعة الطب، وكان يجتمع فيه أصناف أهل الأدب.

ثمَّ سَرَدَ علينا شهادة **يوسف بن إبراهيم** الطبيب في حقِّه؛ وفيها: «وذلك أني كنتُ أعهدُ حُنين بن إسحق الترجمان يقرأ على يوحنا بن ماسويه كتاب فرق الطب، الموسوم باللسان الرومي والسُّرياني بهراسيس، وكان حُنين إذ ذاك صاحبُ سؤال وذلك يصعب على يوحنا، وكان يباعده أيضاً من قلبه أنَّ حُنيناً كان من أبناء الصيارفة

من أهل الحيرة، وأهل جنديسابور خاصة ومتطببوها ينحرفون عن أهل الحيرة، ويكرهون أن يدخل في صناعتهم أبناء التجار، فسأله حُنين في بعض الأيام عن بعض ما كان يقرأ عليه مسألة مستفهم لما يقرأ، فردَّ يوحنا وقال: «ما لأهل الحيرة ولتعلُّم الطب! صِر إلى فلانٍ قرابتك حتى يهبَ لك خمسين درهماً تشتري منها قِفافاً صِغاراً بدرهم، وزرنيخاً بثلاثة دراهم، واشترِ بالباقي قلوساً[1] كوفية وقادسية، وزرنخ القادسية في تلك القفاف، واقعد على الطريق، وصح القلوس الجياد للصدقة والنفقة، فإنَّه أعودُ عليك من هذه الصناعة، ثم أمرَ به فأُخرج من داره، فخرج حُنين باكياً مكروباً، وغاب عنا فلم نره سنتين»

ثم إنَّ حُنيناً لازمَ يوحنا بن ماسويه بعد ذلك بعدة سنوات، وتتلمذَ له واشتغل عليه بصناعة الطب، ونقل حُنين لابن ماسويه كُتُباً كثيرةً وخصوصاً من كتب جالينوس؛ بعضها إلى اللغة السُّريانية وبعضها إلى العربية، وكان حُنين أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسُّريانية والفارسية، والدراية فيهم مما لم يعرفه غيره من النقلة الذين كانوا في زمانه، مع ما دأبَ أيضاً في إتقان العربية والاشتغال بها حتى صارَ من جملة المتميزين فيها[2].

(1) القَلْس: حبلٌ غليظ من حبال السفن. المعجم الوسيط: ٧٥٤.

(2) حُنين بن إسحاق: العصر الذهبي للترجمة: ٣٣ – ٣٧

تاريخ الترجمة

جلسنا إلى أحد أمهر المترجمين في رواق الترجمة، فدار الحديثُ حول طبيعة عملية الترجمة العلمية؛ فكان مما ذكره أنَّه يجب النظر إلى الترجمة لا على أنَّها واقعة تاريخية، بل على أنَّها حركة تاريخية ذات فترات ومراحل وتطوُّر داخلي؛ فإذا اعتبرنا الترجمة واقعة، فسيغيب عنا أشكال هامة مِن تكوُّن وتطوُّر اللغة العلمية، أمَّا إذا اعتبرناها حركة ذات فترات؛ فسنُدرك حينئذ تطوُّر هذه اللغة، وسنعرف أين ومتى تكوَّن الجزء الأساسي من معجم كل علم من العلوم.

طلب صديقي من هذا المترجم الحاذِق أنْ يعطينا مثالاً على ذلك، فضرب مثلاً بعلم المناظر الذي مرَّت حركة الترجمة العلمية فيه بعدَّة مراحل:

المرحلة الأولى: وهي التي غلب عليها النقل الحرفي واللجوء إلى صيغٍ تركيبية واشتقاقية ليست عربية الأصل، والأخذ بالتعريب أحياناً.

المرحلة الثانية: وفيها سعى فيها الناقل إلى التخلُّص من أغلب هذه التركيبات، وأرادَ تصحيحَ الأسلوب حتى يتَّسق مع العربية.

المرحلة الثالثة: وفيها أرادَ المترجم أن يصلَ إلى الإتقان العلمي والإتقان اللغوي معاً.

وحينئذ أدركتُ أنا وصديقي أهمية النظر إلى عملية الترجمة على أنَّها حركة تاريخية ذات مراحل وتطورات، لا على أنَّها واقعة تاريخية تخلو من الأخذ بالمرحلية.

هل اقتصرَ عمل المترجمين على الترجمة؟

في حقيقة الأمر، كان هذا التساؤل كثير التردد في خاطري مثل بداية التفكير في أمر هذه الجولة العلمية في أروقةِ بيتِ الحِكمَة؛ وبالأخص عند زيارتنا الافتراضية لرُواق الترجمة، ويبدو لي أنَّ هناك الكثير من هذه النوعية من الأسئلة التي تجولُ في خاطر الكثيرين؛ إلا أننا نغفل عن تدوينها وكتابتها إلى حين العثور على الشخص القادر على تقديم إجاباتٍ شافية عن مثل هذه الأسئلة المحيِّرة.

الوَرَق في بَيتِ الحِكمَة

كانَ السؤالُ عن الوَرَق من أكثر الأسئلة التي شغلتنا خلال جولتنا؛ وذلك لأنَّه كان بمثابة عماد تلك الصناعة العلمية التي يقوم عليها بيتُ الحِكمَة..

أحسَّ أمينُ الترجمة برغبتنا الشديدة في معرفة تاريخ الورق وأنواعه؛ فابتدأَ القولَ بأنَّه منذ تأسيس أول دواوين الخَرَاج والجيش وبيت المال في عهد الفاروق عُمَر ﷺ، كانت أعمال تلك الدواوين بحاجةٍ إلى الدُّفاتر لمُباشرة أعمالها، وأضافَ بأنَّ كلمة «دفتر» هي كلمة

من أصل يوناني[1] وتعني «الجِلْد»، ولا سيما «جِلْد الحيوان»، والتي أطلقتْ في البداية عَلَماً على وَرَقِ البردي، وعلى هذا النحو أضحَى البردي حاملَ الكاتبةِ المُستخدم في دواوين الخلافة بعد فتح مصر سنة ٢٠هـ، وذلك لاشتهار مصر بصناعة هذا النوع من القَرَاطِيس[2].

وتابعَ بأنَّ أبو العبَّاس - الخليفة العبَّاسي الأول - كان قد أمَرَ وزيره خَالِد بن بَرْمَك (ت: ١٦٣هـ) باستبدالِ الأوراق المفردَة بالسِّجِلات على هيئة الكتب، بيدَ أنَّ الكُتَّاب المسلمين استمروا على عادتِهم في استخدام وَرَق البردي في أعمال الدواوين على عهد الخليفة المنصور، وقد اشتكَى لنا كبيرُ المترجمين من أنَّ حواف وَرَق البردي كانت سريعةَ التآكل؛ مِمَّا يعرِّض الوَرَق للتَّلَف بسبب فتحِ الدَّفتر وإغلاقه.

وقد سألَهُ صديقي: **كيف عَرَفَ المسلمون صناعة الوَرَق أو الكَاغِد؟**

فأجابَ بأنَّ الفَضْلَ في معرفة صناعة الورق يعودُ إلى بلاد الصين، وكان الورق الصيني قد عرفه التجار العرب واستوردوه منهم، فقد كان هؤلاء التجار على اتصالٍ ببلاد الشرق الأقصى،

(1) "Diphthera".

(2) القِرْطَاس: هي الصحيفة أو الوَرَقَة يُكتبُ فيها، وتكونُ من البَرَدِي أو من الكَاغِد، أو من الرِّق. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

وكان لمدينة سمرقند الفضل الأكبر في إنشاء صناعة الورق في العالَم الإسلامي؛ حيث إنَّها كانت أولَ مدينةٍ إسلامية صُنِعَ فيها الورق، وقد فتحها المسلمونَ في العصر الأموي القائد المشهور قُتَيْبَة بن مُسْلِم البَاهِلِي سنة ٨٧هـ[1].

وهنا سألناه: **متَى بدأ استخدام الورق بديلاً عن البَردي؟**

فجاءنا الجواب بأنَّ الخليفة هارون الرشيد قد أسَّس أول مصنع للوَرَق أو الكَاغِد[2] في بغداد سنة ١٧٨هـ، ومِن ثَمَّ توفَّرت كمياتٌ كافيةٌ من الورقِ للكُتَّاب في الدواوين، وعلى هذا النحو حلَّ الورق محلَّ البردي والرِّق جميعاً[3]، إلا أنَّ بيتَ الحِكمَة ظلَّ يستخدمُ كِلا النوعينِ مِن الوَرَق، وكان أبرز ما تميَّزَ به الوَرَق على البردي؛ أنَّه كان يمتصُّ المِدَاد فيصعُب محو الكتابة من على سطحِه دونَ أن يترك ذلك أثراً، ولذلك كانت الصُّحُف المدوَّنة على الورق أقلُّ عُرضةً للتَّزوير من تلك التي دُوِّنَت على أوراق البردي والرِّق بما لا يُقاس؛ حيثُ كان يَسهُل محو الكتابةِ من على أسطُح هاتين المادتين، إمَّا بكشطِ

(1) قصة الـورق: تاريخ الورق في العالمَ الإسلامي قبل ظهور الطباعة، جوناثان بلوم، ترجمة د. أحمد العدوي، دار أدب للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م، ص ١١٥.

(2) الكَاغِد: القِرطَاس؛ ورق الكتابة الأبيض، من الفارسية (كاغد). انظر: المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل: ٢٨٦، المعجم الوسيط: ٧٩١.

(3) قصة الورق: ١١٧ – ١١٨.

البردي، أو بغسلِ الرِّق، فكان الوَرَقُ أفضل ما تمَّ استخدامه في ذلك العصر.

وأضافَ بأنَّ الورق البغدادي يُعدُّ من أفضل أنواع الوَرَق المعروفة؛ وذلك نظراً لجودته ومتانته العالية، حتى أنَّ بعض البيزنطيِّين يُشيرونَ إلى الورقِ أحياناً باسم «البغدادي» في إشارةٍ صريحةٍ إلى الورق المُنتَج في بغداد دونَ غيره من أنواع الوَرَقِ كافة، ثمَّ أخَذَ يعدِّد علينا بعض أنواع الورق البغدادي؛ وأشهرها:

* **الوَرَق السُّلَيْمَانِي**: سُمِّيَ باسم سُليمان، وكان صاحب ديوان بيت المال في خُراسان أيام الرشيد.

* **الوَرَق الطَّلْحِي**: سُمِّيَ باسم طَلْحَة بن طَاهِر صاحب خُراسان.

* **الوَرَق النُّوحِي**: نسبةً إلى نُوح بن نَصرٍ السَّاماني، الأمير في بلاد ما وراء النهر.

* **الوَرَق الجَعْفَرِي**: نسبةً جَعْفَر بن يَحْيَى البرمكي.

* **الوَرَق الطَّاهِري**: نسبةً إلى طاهر بن عبدالله، وهو أحد ولاةِ خُراسان.

* **الوَرَق الفِرعَوْنِي**: والذي ربما اكتسبَ اسمه لوجهِ شَبَهٍ كان بينه وبين وَرَق البَردي.

وماذا عن الأدوات التي يحتاجها المترجمون في الكتابة؟

فأفادنا بأنَّه قد أُنشئت في بغداد سوقٌ للورَّاقين في منطقةٍ يُقال لها «ربض وضاح»، وفيها أكثر من مئة حانوت تحوي جميع أدوات الكتابة مثل: الأقلام، والحِبْر، والدَّوَاة[1]، والسكاكين لقطع الأقلام، وغيرها من الأمور الثانوية، إضافةً إلى مواد الكتابة التي يُشكِّل الورق مادتها الأساسية.

بعدَ ذلك أحالَنَا كبيرُ المترجمين إلى أحدِ الكُتَّاب المَهَرَة ليأخذَنا في جولةٍ نتعرفُ مِن خلالها على أهم أدوات الكتابة المستخدمة في بيت الحِكمَة..

بدأَ هذا الكاتب الفاضل حديثه إلينا بإعطاءِ نُبْذَةٍ عن تاريخ استخدام الأقلام وصولاً إلى عصر بيتِ الحِكمَة؛ فأشارَ إلى أنَّ تاريخ استخدام الأقلام قد بدأَ من أيام السومريين وأهل العراق القديم، فقد كانوا يتَّخذونها من الحديدِ والخشب، يُضغط بها على الطين، فتُرسَمُ الحروف أو الخطوط، وكان للقلمِ عندهم أشكال؛ منها المثلث والمربع، وكان إمَّا ثقيلاً أو خفيفاً من الطرفين، وأخيراً صُنع ثقيلاً من طرفٍ دونَ الآخر، حتى تبرُز الخطوط، وهذا ما توضِّحه الخطوط المسمارية في بلاد العراق.

(1) الدَّوَاة: المِحْبَرَة. انظر: المعجم الوسيط: ٣٠٦.

وعندما جاءَ الإسلام، عرَّجت آياتُ القرآنِ الأولى على ذِكْرِ القَلَم؛ فقالَ تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾[1]، وعنه ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فقال: اكتُبْ، فَقال: مَا أَكْتُب؟ قال: اكتُب القَدَرَ، ما كانَ، وَما هوَ كائِنٌ إِلى الأَبَدِ**»[2].

وقد جاء للقَلَم عِدَّة تسميات، أبرزها: **المِزْبَر**[3] بكسِر الميم، وهو مأخوذٌ من قولهم: زَبَرْتُ الكِتَاب، إذا أتقنتُ كتابته[4]، والمُزَبَّرُ مِنَ الكِتَابَة: المُتْقَنُ المُنْمَنَم[5]؛ فَعَن أبي البَخْتَرِيّ: «سَمِعْتُ حَدِيثاً مِنْ رَجُلٍ، فَأَعْجَبَنِي، فَقُلْتُ: اكْتُبْهُ لِي، فَأَتَى بِهِ مَكْتُوباً مُزَبَّراً»[6]، ومنه سُمِّيت الكُتُب زُبُراً؛ كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**﴾[7].

استوقَفَ صديقي هذا الكَاتِب، وسألَهُ عن **الفَرق بين الكِتَاب والزَّبُور؟**

فأجابه بأنَّ **الزَّبُور**: اسمٌ للكِتَابِ المقصُورِ على الحِكَمِ العقليَّة دونَ الأحكامِ الشرعيَّة، أمَّا **الكِتَاب**: فهوَ يتضمَّنُ الأحْكَامَ والحِكَم،

(1) سورة القلم: ١.
(2) رواه الترمذي، رقم الحديث: ٢١٥٥، وهو في صحيح الجامع، رقم الحديث: ٢٠١٧.
(3) المعجم الوسيط: ٣٨٨.
(4) تاج العروس: مادة (ز ب ر).
(5) معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).
(6) السنن الكبير للبيهَقي: ١٤/ ١٢٣.
(7) سورة الشعراء: ١٩٦.

ويدلُّ على ذلك أنَّ زَبُورَ دَاوُدَ عليه السَّلام لا يتضمَّنُ شيئاً مِنَ الأحْكَام، وقِيلَ بأنَّ الزَّبُورُ كُلُّ كتابٍ يصعُبُ الوقوفُ عليه مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّة، يقولُ تعالى: ﴿**أَم لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ**﴾[1].

ثمَّ تابَعَ حديثه بأنَّ القَلَمَ إنَّما سُمِّيَ بذلك إمَّا لاستقامته، أو لأنَّه مأخوذٌ من «**القُلَّام**»[2] وهو شجرٌ رَخْو، أو لِقَلْمِ رأسه، والقلمُ قبلَ بَرْيِهِ يسمَّى قَصَبَة[3] ولا يُسَمَّى قلمًا حتى يُبْرَى، وكأنَّ اشتقاقَ القَلَمِ من التَّقليم، ومنه تقليمُ حافِرِ الدَّابَّة، ومنه قَلَّمْتُ ظُفْرِي؛ فأصلُ القَلَم: القَصُّ من الشيءِ الصُّلْب، كالظُّفْر، كَعْبِ الرُّمْحِ والقَصَب، ويُقالُ للمَقْلُومِ قَلَمٌ[4].

وكان للخطاطين مواصفاتٌ معيَّنة في اختيارِ أنواعٍ من القَصَبِ الجيِّد الذي يصلُحُ للكتابة بعدَ قطعِهِ بخطٍ مائل، وبَرْيِهِ[5] بعنايةٍ تامَّة، بواسطة سكاكين خاصَّة لهذا الغرض، حيث كان لكلِّ نوعٍ من الخطِّ أقلامُهُ الخاصَّة، لا يكتبونَ إلا به، وكانت السِّكِّينُ هي الأداة

(1) سورة القمر: ٤٣. انظر: مفردات ألفاظ القرآن (كتاب الزَّاي): ٣٠٨.

(2) القُلاَّم: نَبَاتٌ مِنَ الحَمْضِ، يَنْبُتُ عَلَى شَوَاطِئِ الأَنْهَارِ، وَرَقُهُ كَوَرَقِ حَبِّ الرَّشَادِ، لا سَاقَ لَه. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(3) القَصَبَةُ: الأُنْبُوبُ الذي يُتَّخذُ من نَبْتِ القَصَبِ ويُجعلُ، بعدَ بَرْيِهِ، قَلَمًا يُكْتَبُ بِه. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

(4) مفردات ألفاظ القرآن (كتاب القاف): ٥٤٣.

(5) بَرْيُ الشَّيْءِ: نَحْتُهُ وتَرْقِيقُهُ. انظر: معجم الدوحة التاريخي للغة العربية (على الشبكة).

المستعملة في بَرْيِ القَلَم ونَحْتِهِ وشَقِّه، ثمَّ قَطِّهِ[1] ليُعاد بَرْيُهُ من حينٍ لآخر، ويُسَمُّونَها «مُسِن الأقلام»

وقد رأينا هذا الكاتب يُرشِدُ مُتَعَلِّماً عنده ويقول: «ليكُن قلمُك صُلْباً، بين الدقَّة والغلظ، ولا تُبْرِهِ عند عُقْدَة، فإنَّ فيد تعقيد الأمور، ولا تكتُب بقلمٍ ملتوٍ، ولا ذي شقٍّ غيرِ مستوٍ، وإنْ أعوزكَ البحري والفارسي، واضطررتَ إلى الأقلام النبطيَّة؛ فاختَر منها ما يميلُ إلى السُّمْرَة».

وسأَلَه آخر: أيُّ الأنَابيب[2] أصلحُ للكِتَابَةِ وعليها أَصْبرَ؟

فقالَ له: ما نَشِفَ بالهَجِيرِ مَاؤُه، وستره عن تلويحِهِ غشاؤه، من التِّبرِيَّة القشور، الدُّرِّية الظهور، الفضيَّة الكُسُور[3]، ثمَّ قال: «وأحمدُ الأقلام ما توسَّطت حالاته في الطُولِ والقِصَر، والغِلَظ والدقَّة؛ فإنَّ الدقيقَ الضَّئيل تجتمعُ عليه الأنامل، فيبقى مائلاً إلى ما بينَ الثُّلُث، والغِلَظ المُفْرِط لا تحمله الأنَامِل»[4]، وهكذا كان الكُتَّابُ في رُوَاق الترجمة شديدو العنايةِ بأدوات الكتابة نظراً لارتباطِها بجودة المُخرج النهائي وهو الكتابُ المُتَرجَم.

---

(1) قَطَّ القَلَم: قَطَعَهُ عَرْضاً. انظر: المعجم الوسيط: ٧٤٤.

(2) الأُنْبُوب: كلُّ مستدير أجوف كالقَصَب. انظر: المعجم الوسيط: ٨٩٦.

(3) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/ ٤٤.

(4) وراقو بغداد: ٦٣.

وقد لاحظنا أنَّ هؤلاء الكُتَّاب لا يخجلونَ من وجودِ آثارِ الحِبْرِ على ملابسهم وأيديهم، حتى كانَ في حِجْرِ أحدهم قِرطَاساً يشقُّ فيه كلاماً فأُسقِط، فمَسَحَهُ بكُمِّه، فقيل له: لو مَسَحْتَه بغيره، فقال: المالُ فرعٌ والعِلْمُ أَصْلٌ، والأصْلُ أَحَقُّ بِالصَّوْنِ مِنَ الفَرْع، وأنشَدَ قائلاً:

إنَّما الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ العَذَارَى ومِـدَادُ الـدَّوِيِّ عِطْرُ الرِّجَال

ومِنَ الحِكَمِ المعبِّرة ما رأيناهُ مكتوباً عند أحد الكُتَّاب: «**صُورَةُ المِدَادِ في الأبْصَارِ سَوْدَاء، وفي البَصَائِرِ بَيْضَاء**»[1].

الأحْبار في بيت الحِكمَة

استولتْ علينا الدهشة عندما أخبَرَنا هذا الكاتب بأنَّ الأحبارَ المستعملةَ للكتابةِ في هذا البيت قد أعِدَّت خصيصاً لذلك، وذلك لعناية الخليفة بالأعمال المترجَمَة، ثمَّ أخذ يسرد علينا بعضاً من أنواع تلك الأحبار التي تُستعمَل لديهم، ومنها أهمها: **حِبر البَاقِلاء** الذي كان يُصنع في الصيفِ عادةً، وذلك لشدة حرارة الشمس في بغداد، ويتمُّ تصنيعه بتنقيعِ البَاقِلاء (الفُول) لمدة أربعينَ يوماً في الشمس ويؤخذ ماؤه، ويُضافُ له الصَّمْغ العربي بنسبة ٢٠٪.

وكانوا يستخدمونَ **حِبر الذَّهَب** في كتابةِ المَصَاحِف والكُتُب الثمينة، إضافةً إلى بعض الأسماءِ الجليلة وفَوَاتِحِ بعض الكُتُب؛

(١) صبح الأعشى: ٢/ ٤٦١.

وتُستعمل في صناعته صحائف رقيقة جداً من الذَّهَبِ الخالص، حيث تُخلط هذه الصحائف مع الصَّمْغ العربي بنِسَبٍ معيَّنة، ويُخلط في إناءٍ بلَّوري، ويُحرَّك بالسبَّابَة، وبعد إذابة ذرَّات الذَّهَب في الصَّمْغ، يُضاف له كمية من الماء لكي يطفو الصَّمْغ العربي، ويترسَّب الذَّهَب في قَعْرِ الإناء، ويُترك ليومٍ كامل، ثمَّ يُسكَب ذلك الماء عن الذَّهَب المترسِّب في الإناء، ويُوضع غيره، حتى يتأكَّد الصانع من خُلُوِّه من الصَّمْغ العربي، ثم يُؤتَى بغري السَّمَك الجاف ويُذَوَّب بالماء الساخن جداً، ثمَّ يُضاف إلى الذَّهَب المُصَفَّى من الماء والصَّمْغ العربي، وحينئذٍ يصبحُ حِبْراً معدًّا للكتابةِ والتزويق[1]، وهذا يدلُّ على عنايتهم بصناعة الأحبار المخصَّصة لكلِّ فنٍّ مِن الفنون.

كان هذا طَرَفاً مِن لقاءِنا مع أمين الترجمة ببيتِ الحِكمَة، فكان مِن أفضل مجالسنا في هذا البيتِ العامرِ بالعِلم، وكان مجلساً نادراً ما قُمنا منه إلا ونحنُ كارهون، نتمنى لو أنَّه يمتدُّ بنا أسبوعاً، وخرجنا وقد امتلأت وِطابنا[2] عِلْمًا وفَوَائِد.

---

(1) وراقو بغداد: ١١٦.

(2) الوَطْبُ: سِقاءُ اللَّبن؛ وهو جلدُ الجَذَع فما فوقه، ويُجْمَع على: أَوْطُب، وأَوْطاب، ووِطَاب، وأَواطِب. انظر: المعجم الوسيط: ١٠٤١.

رُواق جماعة بني مُوسى

كانت آخر محطَّاتنا في هذه الزيارة هي الاطلاع على ذلك الرُّواق الذي يُنسَب لأحد أشهر الجماعات العلمية في تاريخ العلم عند العرب، ألا وهي جماعة «**بني موسى بن شاكر**»، وقد كُنَّا على درايةٍ بأنَّ تاريخ العلم العربي شهدَ العديد من الجماعات العلمية التي يرتبط أفرادها بعلاقاتِ دمٍ أو قرابة، وربما كانت هذه العلاقات أحد الأسباب الرئيسية التي ساعدت على نبوغ تلك الجماعات في المجال العلمي، ففي كثيرٍ من الأحيان يجد الفرد داخل إطار أسرته المناخَ المناسب للعمل العلمي.

ومِن أمثلة هذا النوع من الجماعات العلمية: جماعة «بَختيشوع»، التي نبغ أفرادها في علم الطب إلى درجة أنَّهم خدموا به الخلفاء، ابتداءً من الجدِّ الأكبر «بَختيشوع»، ومروراً ببعض الأولاد والأحفاد (جورجيس، بَختيشوع، جبرائيل)، هذا فضلاً عن إسهامهم في حركة النقل والترجمة.

ونجد أيضاً جماعة **حُنين بن إسحاق** التي ضمَّت ابنه إسحاق، وابن أخته حبيش بن الأعسم، واشتهرت في مجال الترجمة، واتَّسعت هذه الجماعة لتضم مدرسة علمية متكاملة جاء مجالها واهتمامها موجَّهاً إلى موضوعاتٍ أساسية في التوجُّه العلمي.

أمَّا جماعة **بني موسى بن شاكر**، فقد نبغت في الفلكِ والهندسة والحِيَل «الميكانيكا» والمساحة والفيزياء، وكان قوامها الأبناء الثلاثة (**مُحمَّد، أحمَد، الحَسَن**) لموسى بن شاكر الأب، الذي لم يعمل مع هذه الجماعة العلمية؛ لأنَّه توفِّي وهو أطفالٌ صغار.

اصطحبنا الرحَّالة في جولةٍ داخل هذا الرُّواق الفسيح، وقد أخذ يحدِّثنا عن تقريب المأمون وعنايته بأبيهم موسى بن شاكر، الذي قرَّبه إلى بلاطه، واهتمَّ بتهذيبه وتعليمه، حتى صارَ من منجِّميه ونُدمائه، وفي مقدمة علماء زمانه. فقد عُرِفَ، بعد أن أتقنَ علوم الرياضيات والفلك، بـ «**المُنَجِّم**»، واشتهرَ بأزياجه الفلكية، وبذلك يمثِّل المأمون السببَ الرئيس في تكوين موسى بن شاكر العلمي، وهذه نقطة مهمَّة ينبغي أن تؤخذَ في الاعتبار في تناولنا لجماعة بني موسى، فالمأمون الخليفة العالِم قد حوَّل مسار موسى بن شاكر تماماً، **فجعله يقطع شَوطاً كبيراً في طريق العلم بدلاً مِن قطعِ طريق المارَّة**[1]، وهو الأمر الذي أرادَ موسى بن شاكر أن يربيِّ عليه أولاده الثلاثة، ولكنَّه توفِّي وهم صغار، وكان أنْ عَهِدَ بهم إلى المأمون أيضاً، وبناءً على ذلك فالمأمون هو صاحبُ الفضل على هذه

(1) علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية، خالد أحمد حربي، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سلسلة كتاب الأمَّة (العدد: ١٠٤)، الطبعة الأولى، ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ديسمبر ٢٠٠٤/ يناير ٢٠٠٥م.

الجماعة العلمية؛ فقد تكفَّل بهؤلاء الصبية الصغار بعد وفاة أبيهم، وعَهِدَ بهم إلى «**إسحاق بن إبراهيم المُصبعي**»، فألحقهم إسحاق ببيتِ الحِكمَة تحت إشراف الفلكي والمنجِّم المعروف «يحيى بن أبي منصور»، وكان المأمون أثناء أسفاره إلى بلاد الروم يُرسل الكُتُب إلى إسحاق بأنْ يراعيهم، ويوصيه بهم، ويسأل عن أخبارهم، وقد أتاحَ وجود بني موسى في بيت الحِكمَة، كبيئة علمية بحتة، فرصةً عظيمة وغير عادية لهم من أجل تثقيف أنفسهم وإبراز مواهبهم العلمية، ولقد تعاونَ الإخوة الثلاثة فيما بينهم في تحصيل العلم، فدرسوا سَوِيًّا علوم الحِيَل والفلك والرياضيات والهندسة، حتى برزوا واشتهروا في هذه العلوم.

ثمَّ أخذَ صاحبنا في التأكيد على أنَّ هؤلاء الأخوة الثلاثة قد نشأوا في بيت الحِكمَة، في جوٍّ مشبَّع بالعِلم، حيث لمسوا وتأثَّروا بكلِّ ما كان يجري فيه مِن نشاطاتٍ علمية مختلفة، كما أخذَ في تعريفنا على اختصاصِ كلٍّ منهم؛ فكبيرهم «**مُحَمَّد**» كان مختصاً بعلم الفلك وله اهتمامات علمية أخرى، وأوسطهم «**أحمد**» كان معنياً بعلم الحِيَل، في حين كان أصغرهم «**الحَسَن**» مهتماً بالرياضيات.

إلا أنَّ «**مُحَمَّداً**» كان أعظمهم شأناً، وأطولهم باعاً في السياسة وذا تأثيرٍ كبير على الخليفة، فقد استطاعَ أنْ يكوِّن جماعةً علمية فلكية،

ضمَّت إلى أخويه أحمد والحَسَن، عدداً من الفلكيين لم تسعهم إلا دارٌ فسيحة في أعلى ضاحيةٍ من بغداد بقُربِ باب الشماسية، خصَّصها المأمون لرصد النجوم رصداً علمياً دقيقاً، وإجراء قياساتٍ مثيرة للإعجاب، كانت تقارن بغيرها في جنديسابور، وبأخرى تجري بعد ثلاث سنوات في دراسةٍ ثانية تمَّت على جبل قاسيون على مقربةٍ من دمشق للمقارنة، وكان أفراد هذه الجماعة يعملونَ مجتمعين على وضعِ جداول «أزياج» الفلك، وهي عبارة عن مراجعة دقيقة لجداول بطلميوس القديمة.

كتاب الدرجات المعروفة

أحبَّ صاحبُنا أنْ يُطلِعَنا على نسخةٍ مِن أحدِ أعظمِ الكُتب التي أنتجها هؤلاء الإخوة، فسارَ بنا إلى إحدى نواحي هذا الرُّواق، لنجدَ أنفسنا أمام هذا الكتاب المعروف عندهم بـ «**كتاب الدرجات المعروفة**» في الفلك، وعندما أخذنا في قراءةِ مقدمته؛ تبيَّن لنا بوضوحٍ أنَّه عملٌ جماعي وليس جُهداً فرديًّا، إذ إنَّهم قد استعانوا بمجموعةٍ من المترجمين لترجمة ما وجدوه عند اليونان من كتبٍ في معرفة أحكام النجوم؛ ففي بداية الكتاب يقرِّر الإخوة الثلاثة أنَّ اليونانيين قد نقلوا العلوم التجريبية من الهند، لأنَّ العقلية اليونانية كانت عقليةً نظريةً فلسفية أكثرَ منها تجريبية، ولمَّا نظروا هم في الكتب الفلكية الموجودة

على عهدهم وجدوها قد احتوت على أخطاء، لذا قرَّر الإخوة الثلاثة نقل كتب القدماء «اليونان» التي هجرها المتأخرون لعدم فهمهم إياها، الأمر الذي كلَّفهم مشقةً كبيرة - كجماعة متخصِّصة في علم الفلك - في تصحيح عبارات المترجمين وتهذيبها، ومن جملة كلامهم: «**إنَّ القدماء مِن أهلِ اليونانية تسلَّموا علومهم التجريبية من الهند.. ولمَّا نظرنا في الكتب الموجودة إلى الآن في معرفة أحكام النجوم، وجدنا أكثرها حَايداً عن الصَّواب، وعن ما سطَّره أوَّلوهم، ووجدنا لقُدمائِهم كُتُباً قد هجرها المتأخِّرون، لجهلهم كيفيةَ استعمال ما فيها، وبُعدِها عن أذهانِهم، فتكلَّفنا التَّعبَ الشديد في نقلِه إلى لغة العرب، واستعنَّا في ذلك بأفضل ما وجدناه من النَّاقِلين في زماننا، واجتهدنا في تهذيبِ العِبارةِ عنهم**»[1].

فكان هذا الكتابُ بحقٍّ مِن أعظمِ ما رأينا في بيت الحِكمَة، فهو بمثابة موسوعة فلكية حاولتْ جماعة بني موسى أنْ تضعها بغرض إحياء علم الفلك الهندي واليوناني بعد تنقيحه وتصحيحه من الأخطاء التي وقفتْ عليها الجماعة.

(1) علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية: ١٥٦، نقلًا عن مخطوطة «كتاب الدرجات المعروفة» بمعهد المخطوطات العربية (رقم ٦٠ فلك، ورقة ١ وجه).

كتاب الحِيَل[1]

على الرغم من ثراء المادة العلمية لكتاب «**الدرجات**»، إلا أنَّه لم يكن أعظم ما كتبه بنو موسى، إذ يأتي «**كتاب الحِيَل**» على رأس مصنَّفاتهم العلمية؛ فقد ارتبط اشتهارهم بهذا الكتاب أكثرَ مِن أيِّ كتابٍ آخرَ لهم، ولعل ذلك يرجع إلى أنَّه أول كتابٍ علمي عربي يبحث في «الميكانيكا»، وذلك لاحتوائه على مائة تركيب ميكانيكي.

وترجع أهمية هذا الكتاب أيضاً إلى أنَّ التقاليد العربية المدوَّنة في علمِ الحِيَل تبدأ به، ومِن الطبيعي أنَّه كانت تتوفَّر لدى جماعة بني موسى بعض الكتب اليونانية مما خلَّفه علماء مدرسة الإسكندرية، ولكنَّ تأليف «كتاب الحِيَل» بما يشتملُ عليه من إبداعٍ في تصميم الوسائل الميكانيكية - الهيدروليكية، لم يكن ليتم بمجرَّد الاطِّلاع على الكتب اليونانية، إذ لابدَّ من توفُّر المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي والمهارة الدقيقة في الصناعات والفنون حتى تتمكَّن الجماعة مِن أنْ تخترع وتُصمِّم بهذا الشَّكل.

---

(1) على الرغم مِن أنَّ المعنى السائد للحِيلَة هو الخدعة والمكيدة، فإنهَّا باللغة العربية تعني أيضاً الحذق والوسيلة والإمكانية والقدرة على التصرُّف في الأمور، فالشخص واسع الحيلة هو الماهر في تدبُّر أموره، فحين يُقال: تَحَايَل على الرجُل أو الشيء: أي سلكَ معه مَسلكَ الحِذق ليبلغَ منه مأربه. انظر: المعجم الوسيط: ٢١٢.

وقد اطلَعَنا الرحَّالةُ على مجموعةٍ كبيرة مِن أشكال هذه الحِيَل؛ منها وصفٌ لأباريق تختلفُ طريقة عملها باختلاف طريقة تحكُّم المستخدِم بها، وجِرار تُصبُّ فيها سوائل متنوعة فلا تختلط، وأخرى تُصبُّ منها كميات محدَّدة من الماء تلقائيًّا بانتظام، وفوانيس لا ينقصُ زيتها، ونوافير تغيِّر أشكالها تلقائيًّا، وتماثيل تتصرَّف كأنَّها ترى، وأحواض لسقاية المواشي لا ينقصُ ماؤها، إضافةً إلى جهازٍ لرفعِ الأغراض الملقاة في قيعان الآبار والأنهار، وصفارة تُصدِرُ صَوتاً إذا ما غطست في الماء[1]، إلى غير ذلك من الأجهزة التي رأيناها في هذا الرُّواق.

وقد حانَ وقتُ المغادرة

وحين تهيأنا لمغادرة هذا البيت، أخذنا في إلقاءِ نظرةٍ أخيرة على أروقتِه ودهاليزِه وصحنِه، وفي طُرُقِه المتشعِّبة منه ماءٌ يجري بلا انقطاع، وكان لمشهد السَّاحة الخارجية عُمُدٌ عجيبة قد ظهرت فيها عُروقٌ من غير ألوانِها تتخيلها العين منزَّلة فيها بأيدي الصُّنَّاع، إلى غير ذلك من المحاسن التي حَواها هذا البيتُ المبارك، وعَظُمت عن أنْ يُحيط بها وصف، فإني لأحسبُ الزائرَ لو تردَّد إليه زمانه لرأى

(1) بنو موسى وعلم الحِيَل، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ١٦.

كلَّ يومٍ ما لم يكن قد رآه قبل؛ من جمال الرَّسم وإحكام الصَّنعة، كما أحسبُ أنَّه لا يزوره أحدٌ إلا وهو يجدِّد الدعاء لبانيه.

وقد ألقينا تحية الوداع على ذلك الرحَّالة الكريم الذي صاحَبَنا طوال هذه الرحلة التي أخذت بمجامعِ قلوبنا حيرةً وإعجاباً، فكان بقاءُ هذا البيت محجَّةً لطالبي الحِكمَة مِن كافةِ الأصقاع، تنشغفُ أفئدتهم بما فيه من الغريب الذي يندُر أن يوجد مثله في بقاع المعمورة.

وختاماً، فقد وجدنا أنَّ بيتَ الحِكمَةِ كان خِزانَة أدب، ومركزاً للترجمة والتأليف، ومركزاً للأبحاث ورصد النُّجوم، وأنَّ الكتبَ التي حواها هذه البيت لها جُملة مصادر؛ أوَّلها: الكتب القديمة التي وصلت عن طريق الوراثة والاقتناء، وهي كتب عربية ويونانية وفارسية وسُريانيَّة، وثانيها: الكتب التي تُرجِمَت عن تلك اللغات الأجنبية، وثالثها: الكتب التي أُلِّفَت للمأمون ولغيره من الخلفاء، وغير الخلفاء، ورابعها: الكتب التي نسخها النسَّاخ الذين كانوا يعملونَ في بيت الحكمة[1].

فهذه صفحةٌ مشرقة في حضارة العرب الذين عُرِفوا بين الأمم بصلاحِ أمرهم، واتِّساع المعايش بين أيديهم، واحتذائهم أشرفَ السُّنن العادلة، فكأنَّ الله تعالى قد خصَّ هذه الأمَّة من الفضل

(1) بيت الحكمة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية: ٤١.

والنعم بما لم يكن مثله في غيرهم من الأمم، فإنَّ العربَ أحلى وأحلم، وأعلى وأعلم، وأقوى وأقوم، وأعطى وأعطف، وأحصى وأحصف، وأشرى للفَخَار وأشرف، وأنفى للعار وآنف، وحسبي بما نقلتُ إليك من أخبارهم في هذا الكتاب دليلاً على ما ركَّب اللهُ في طبائعهم من الأنفة وعزة النفس، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التي تُشرِّفهم وتُعلي ذكرهم، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

المصادر

* **القرآن الكريم**، مصحف تطبيق «آية»، مركز تفسير للدراسات القرآنية.

* **الحَدَقي** (رواية)، أحمد فال ولد الدين، دار البشير، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

* **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

* **مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: د. صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

* **بغداد مدينة السلام: انشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الأولى**، د. صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٥م.

* **حضارة الإسلام في دار السلام**، جميل نخلة المدور، مؤسسة هنداوي، وندسور (المملكة المتحدة)، ٢٠١٨م.

* **جامع بيان العلم وفضله**، يوسف بن عبدالبر (ت: ٤٦٣هـ)،

تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

* **الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى**، د. سعيد بن علي بن وَهف القحطاني، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ.

* **العصر العباسي الأول**، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٦م.

* **بنو موسى وعلم الحِيَل**، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.

* **لقمان الحكيم**، عبدالله كنون الحسني، دار المعارف بمصر، لا توجد سنة للنشر.

* **معجم لغة الفقهاء** (عربي - إنكليزي - إفرنسي)، أ.د. محمد رواس قلعه جي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

* **تكوين المفكر: طرح عملي**، أ.د. عبدالكريم بكار، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

* **الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي**، د. محمد البهي، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦م، لا يوجد جهة للنشر.

* **البداية والنهاية**، الإمام الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط والدكتور بشَّار عوَّاد معروف، دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، الطبعة الخامسة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

* **القاموس العربي الأول لمصطلحات علوم التفكير**، عيسى سعد العوفي، عبدالرحمن علوي الجميدي، ديبونو للطباعة والنشر والتوزيع، عمَّان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

* **الفَوْز بالمراد في تاريخ بغداد**، سُليمان الدخيل، تقديم وتعليق د. محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

* **السُّنَن الكبير**، الحافظ أبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

* **الشافعي: حياته وعصره.. آراؤه وفقهه**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٨م.

* **ورَّاقو بغداد في العصر العباسي**، د. خيرالله سعيد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* **أبو بكر الصِّدِّيق**، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع،

جدَّة، الطبعة السادسة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

* **بغداد: ذكريات ومشاهدات**، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدَّة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

* **بيت الحكمة في عصر العباسيين**، د. خضر أحمد عطا الله، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

* **الجوهر النفيس في تاريخ حياة الإمام محمد بن إدريس**، محمد أفندي مصطفى، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

* **ماذا قدَّم المسلمونَ للعالَم: إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية**، د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

* **بهجة قلوب الأبرار وقرَّة عيون الأخيار**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مركز تفكُّر للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

* **قصة الورق: تاريخ الورق في العالَم الإسلامي قبل ظهور الطباعة**، جوناثان بلوم، ترجمة د. أحمد العدوي، دار أدب للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

* **علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية**، خالد

أحمد حربي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، سلسلة كتاب الأمَّة (العدد: ١٠٤)، الطبعة الأولى، ذو القعدة ١٤٢٥هـ، ديسمبر ٢٠٠٤/ يناير ٢٠٠٥م.

* **قواعد نبوية: خمسون قاعدة في العلم والأخلاق والسلوك**، أ.د. عمر بن عبدالله بن محمد المقبل، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

* **التأويل الحداثي للتراث: التقنيات والاستمدادات**، إبراهيم بن عمر السكران، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

* **في إشراقة آية**، أ.د. عبدالكريم بكار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

* **أليس الصبح بقريب**، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس – دار السَّلام، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

* **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، جمال الدِّين أبي الحَسَن علي بن يُوسُف القفطي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

* **حُنين بن إسحاق: العصر الذهبي للترجمة**، د. ماهر عبدالقادر

محمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.

* **ديوان الشافعي**، جمع وتحقيق ودراسة د. مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

* **أبو بكر الصِّدِّيق: خليفةُ رسولِ الله ﷺ**، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

* **عُمَر بن الخطَّاب: الخليفة الراشدي العظيم**، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

* **عُثمان بن عفَّان: الحَيي السَّخِي ذو النورين**، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

* **علي بن أبي طالب: أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين**، عبدالستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

* **مع الأئمة: الجوامع والفروق والسِّيَر**، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، الرياض، الطبعة الثالثة، رمضان ١٤٣٤هـ.

* **أدب الدين والدنيا**، أَبِي الحَسَن الماوَرْدِي (ت: ٤٥٠هـ)، دار المنهاج، جدَّة، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

* **القيم الجمالية في شعري الإمامين ابن المبارك والشافعي**، أ.د. مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

* **تاريخ الخلفاء**، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

* **زهر الآداب وثمر الألباب**، أبو إسحاق الحُصري (ت: ٤٥٣هـ)، فصَّله وضبطه وشرحه: د. زكي مبارك، اعتنى به: رضوان مامو، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

* **الحياة الاجتماعية في بغداد: ٥٧٥ - ٦٥٦هـ/ ١١٧٩ - ١٢٥٨م** (رسالة ماجستير)، محمد عبدالله أحمد القدحات، إشراف: أ.د. تقي الدِّين الدوري، جامعة مؤتة، عمَّان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

* **المعجم المفصل في المعرَّب والدَّخيل**، د. سعدي ضنَّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

* **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، خيرالدِّين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

* **نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**، د. محمد

موسى الشَّريف، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

* **المجالسة وجواهر العلم**، أبي بكر أحمد بن مروان الدَّينوري المالكي (ت: ٣٣٣هـ)، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

* **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، مجد الدِّين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

* **الرحيق المختوم: بحثٌ في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام**، صفي الرحمن المباركفوري، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٥هـ.

* **الحنين إلى الأوطان**، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

* **بيت الحكمة البغدادي وأثره العلمي**، بهجه علي محمد البياتي، رسالة ماجستير مقدَّمة إلى كلية التربية بجامعة بغداد، إشراف: د. هادي حسين حمود، محرم ١٤٢٤هـ/ آذار ٢٠٠٣م.

* **في النص الجاهلي: قراءة تحليلية**، د. عبدالرزاق حسين،

مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

* **الحواضر الإسلامية الكبرى: دراسة تشمل معالِم الحضارة في أمهات المدن الإسلامية في عصور ازدهارها**، د. عصام الدِّين عبدالرَّؤوف، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م.

* **بيت الحِكمَة ودُور العلم في الحضارة الإسلامية**، د. يحيى وَهيب الجُبُوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

* **العبَّاسيون الأقوياء: رحلة العباسيين منذ بداية الثورة وحتى نهاية عصرهم الذهبي**، محمد إلهامي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

* **تاريخ العرب العام**، ل. أ. سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، تعليق: سارة مجدي، عالَم الأدب للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.

* **الكيمياء القديمة: حقيقتها ومواقف العلماء منها**، د، عبدالرحمن بن حسن قائد، مؤسسة دراسات تكوين، لندن، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م.

* **كيف صنع الإسلام العالَم الحديث**، مارك غراهام، ترجمة:

أ.د. عدنان خالد عبدالله، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

* **عبقرية الإمام الشافعي: المَدَد والمِدَاد**، مشاري بن سعد بن عبدالله الشَّثْرِي، دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، محرَّم ١٤٤١هـ.

* **العمارة العربية الإسلامية: ماضيها وحاضرها ومستقبلها**، د. فريد محمود شافعي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

* **المعجم المفصَّل في المعرَّب والدَّخيل**، د. سعدي ضنّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

* **خريطة بيري رئيس: المعرفة المنسية للعرب واكتشاف أميركا**، سوزانه بيليغ، ترجمة: محمد سامي الحبَّال، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

* **بغداد: مدينة المنصور المدوَّرة** (رسالة ماجستير)، طاهر مظفَّر العميد، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

* **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، جمال الدين بن نُباتة المصري (ت: ٧٦٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، لا يوجد سنة للنشر.

* **مكتشف الكنز المفقود: فؤاد سزكين وجَولة وثائقية في اختراعات المسلمين**، أ.د. عِرفَان بِلْمَاز، ترجمة: أحمد كمال، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

فهرس الموضوعات

الإهداء 5

المقدمة 6

على سبيلِ الاستعداد 8

إلى جلسة العَصْف الذِّهنِي 10

المحور الأول: المُراد بالحِكمَة 11

بين العَالِمِ والحَكيم 14

الحِكمَة والإرادَة 15

أنواع الحِكمَة 16

الحِكمَة في القُرآن 17

الحِكمَة في السُّنَّة النبويَّة 19

مَن هو الحكيم مِن البشر؟ 22

المحور الثاني: نشأة بيت الحِكمَة 23

مدينة بغداد 28

حكاية الاسم 32
أول مَجْمَع للغة العربية! 33
الغاية من تأسيس بيت الحكمة 35
في رحاب بيت الحِكمَة 39
الخليفة المأمون 43
عَرَبَة الكُتُب! 46
حدائق بيت الحِكمَة 48
مَوكِب الخَلِيفَة 60
في صفة البيت 65
الرَّايات العبَّاسية 69
رُوَاق القَيِّم 73
الجَاحِظ والنظَّام 76
حِكمَة أمير الحَج 78
نقش الفيل وخُطبة المنصور 79
خُطبة المأمون 82

بصحبة القيِّم والرحَّالة 84
الرحلة في طلبِ الحِكمَة! 85
الحِكْمَة عندَ المأمون 87
رُوَاق مجلس الحُكَمَاء 92
المأمونُ والشَّطْرَنج 94
رُكن الفقهاء 98
حُكَماء الإسلام 101
سَيِّدُ الحُكَمَاءِ 102
صِدِّيقُ الحُكَمَاء 104
فَارُوقُ الحُكَمَاء 105
شَهِيدُ الحُكَمَاء 106
حَكِيمُ الحُكَمَاء 107
لُقْمَانُ الحَكِيم 110
حَكِيمُ الفُقَهَاء 113
لُقْمَانُ هَذِهِ الأُمَّة 114

رُوَاق الخِزَانَةِ 136
دواوين القَصَص 137
ركن علوم الفلسفة 142
مِن نفائسِ الخِزانَة 146
علوم الأوائل 147
مصادر الخِزانَة 149
وَصَايَا أَبِي تُرَاب 152
التصنيف عند العرب 155
وصيَّةُ الرَّشيد 156
مقتنيات الخزانة 158
رُواق الترجمة 160
رؤية المأمون لأرسطو! 164
الترجمة في صدر الإسلام 168
الترجمة والعبَّاسيين 171
فِي رِحَابِ القَلَم! 172

بصحبة أمين الترجمة 173
أقسام الرُّواق 178
شجرةُ العلوم 180
حُذَّاق المترجمين 184
حُنين بن إسحاق 185
تاريخ الترجمة 187
هل اقتصرَ عمل المترجمين على الترجمة؟ 188
الوَرَق في بَيتِ الحِكمَة 188
الأحْبار في بيت الحِكمَة 196
رُواق جماعة بني مُوسى 198
كتاب الدرجات المعروفة 201
كتاب الحِيَل 203
وقد حانَ وقتُ المغادرة 204
المصادر 207